



الأدب المثمن

أحمد عبد الله الدامغ

الجزء الثاني عشر



مركز سعود البابطين الخيري للتراث والثقافة
قسم الدراسات والبحوث والنشر
الرياض ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م



ح احمد عبدالله الدامغ، ١٤٢٤ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدامغ ، احمد بن عبدالله
الادب المثمن / احمد بن عبدالله الدامغ - الرياض، ١٤٢٤ هـ
١٦ مج. ، ٣٣٦ ص ، ١٧ X ٢٤ سم
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)
١- الادب العربي - مجموعات أ- العنوان
ديوي ٨، ٨١٠ ١٤٢٤/٢٧٧٣

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٧٧٣
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)

المملكة العربية السعودية ص.ب ٩٣٩٢٧ الرياض ١١٦٨٣ هاتف ٤٨٧٠٥١٣
فاكس ٤٨٧١٤٢٧/٣٦
الموقع على الأنترنت
www.albabtain-center.com
البريد الألكتروني:
E-mail: info@albabtain-center.com



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

باسم الله وعليه أتوكل في كل قول وفعل وعمل:

لقد اعتدت فيما تقدم من أجزاء هذا الكتاب «الأدب المثمن» أن أشير إلى بعض الملاحظات المتعلقة به، سواء منها ما يرتبط بشرح خط تأليفه أو ما يحسن أن أشير إليه مما أحببت أن يكون القارئ على علم به.

وفي هذه المقدمة القصيرة لهذا الجزء، وهو الجزء الثاني عشر أود أن أشير إلى أن القارئ الكريم قد يجد تضارباً أو بالأصح بعضاً من التضارب فيما أبديته من رأي في بعض الموضوعات، ثم كان لي رأي آخر مخالف للأول، فإن هذا يعود إلى ما يفصل بين الأول منها والأخير من سنوات غَيّرَ واقعها ما كنتُ قد رأيته منذ قبل.. أو أن التجارب بالنسبة لي واتساع دائرة الاطلاع على ما كنت أجهله عند تحرير الموضوع الأول كان السبب في اختلاف رأيي في موضوع واحد.

لذا أرجو من القارئ الكريم أن يأخذ بهذا الاعتبار لعله يخفف وطأة انتقاده لي. وما أنا إلّا مجتهد. وما ذاك إلّا نهاية جهدي في ذلك. ليس إلّا.

المؤلف

أحمد عبد الله الدامغ



للعلماء واجب علينا في حياتهم وبعد مماتهم

من عهد قريب كان موت العالِم الإسلامي يهز كيان المجتمع الذي كان يعيش وسطه. ويحزن لسماع موته كل شخص قد عرف قيمة العلم.. وكان الدعاء والترحم عليه لا ينقطع، ولا تحلّ تكراره الألسن.. حيث تحركها القلوب والأنفس التي كانت متعلقة به. وبأثاره العلمية. وأخلاقه وفضائله. وسماحته. وحرصه على نشر علمه بين الناس.

وما أكثر ما يقال لنا عند بعض الصلوات: صلوا صلاة الغائب على صاحب الفضيلة الشيخ فلان ابن فلان.. فنصلي وندعو له. ونأخذ في ذكر مناقبه وقتاً طويلاً ويؤبنه الشعراء منا بالأشعار والقصائد التي نحفظها في صدورنا. ويناله من سماعها الدعاء والترحم.

لكن هذا الأمر قد أوشك أن يتلاشى، وقد يكون نادراً في هذا العصر إذ لا يستبعد أن يصبح الميت من العلماء كأي ميت عادي لا يحزن عليه ولا يذكره إلّا من حضر جنازته وشارك في دفنه في قبره. اللهم إلّا من كان بارزاً منهم فإن موته يكون له شيء يسير من الإعلان.

- ووالله إن هذه الظاهرة غير حميدة منا بل إن فيها جحداناً لفضل العلم وأهله وتناسياً للعالم وفضل علمه.

والتنبيه إلى هذه الظاهرة غير المستحبة أمر يحتمه المنهج الإسلامي على بني الإسلام ليكرموا علماء الإسلام أحياءً وأمواتاً.. فإكرامهم وهم أحياء يتمثل في تقديرهم وإجلالهم، أما إكرامهم بعد موتهم فإحياء ذكرهم، والدعاء لهم، والترحم عليهم، وذكر مآثرهم وجلائل أعمالهم،



وذلك كتعداد الشاعر علي أفندي الدرويش من شعراء القرن الثالث عشر الهجري فضائل أحد علماء عصره، وهو العالم إسماعيل بك تيمور في مرثية طويلة. منها قوله:

فمن للأحاديث الصحاح إذا نأت
مشايخها عنها وغاب رجالها

ومن لمباني النحو يعرب وصفها
فمن بعد ذا الماضي تنكر حالها

ومن لأصول الفقه والدين حاميا
إذا ما بدا من جاهليها اعتزالها

ومن لسيوف الملحدين يغلها
إذا طال في يوم الخصام جدالها

ومن لعلوم الشرع يلقي دروسها
فقد درست آثارها واحتفالها

ومن لفتاوى المشكلات يحلها
فسيان أضحى حَظْرها وحَلَالها

ومن لمواعيد المواعظ التقى
وتفسير آيات يجل جلالها

ومن ليتامى الفضل يرجى فقد مضى
أبوه وأضحت باكيات عيالها

والقصيدة طويلة كما أسلفت فهي تبلغ ٥١ بيتاً وقد ضمها كتابه «الإشعار بحميد الأشعار».

○○○○○

الهدي النبوي رفق قلوباً كانت كالحجارة لا ترق

وفي سيرة نبينا وإمامنا وقائدنا إلى الجنة بإذن الله محمد بن عبد الله عليه صلاة الله وتسليمه، لا حصر له من القصص والمواقف التي تصور حقيقة تعنت مشركي قريش، وتحجر قلوبهم عن تفهم دعوته ﷺ في بدايتها.. ورفض الاستجابة لما يدعوهم إليه من خير وصلاح لأمر دنياهم وآخرتهم. رفضاً قاطعاً.. إلّا أن صدق الدعوة التي بدد نورها ظلام الجهل قد تسلل إشعاعه إلى تلك القلوب، فجعلها أرق من الماء. وأطوع من يد الإنسان إلى فمه.

من تلك الصور المضيئة، ما نقله الحافظ ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» عن ابن إسحاق قوله في وصف إسلام العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ - وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ - وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي أخي أم سلمة أم المؤمنين - وهجرتهم إلى رسول الله ﷺ فوجدوه في أثناء الطريق وهو ذاهب إلى فتح مكة: - كان العباس بن عبد المطلب لقي رسول الله ﷺ ببعض الطرق. قال ابن هشام: لقيه بالجحفة مهاجراً بعياله، وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته، ورسول الله عنه راض فيما ذكره ابن شهاب الزهري.. قال ابن إسحاق: وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أمية قد لقيا رسول الله ﷺ أيضاً بنبق العُقَاب فيما بين مكة والمدينة. والتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله إن ابن عمك وابن عمتك وصهرك قال: «لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي فهو الذي قال لي بمكة ما قال». قال السّهيلي يعني حين قال له: والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلماً إلى السماء فتعرج فيه وأنا انظر ثم تأتي

بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله قد أرسلك. ـ فلما خرج إليهما الخبر بذلك، ومع أبي سفيان بنى له فقال: والله ليأذن لي أو لآخذن بيد بني هذا ثم لنذهبن في الأرض. ثم نموت عطشاً وجوعاً، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ رق لها ثم أذن لهما، فدخلا عليه فأسلما، وأنشد أبو سفيان قوله في إسلامه، واعتذر إليه مما كان مضى منه:

لعمرك إني يوم أحمل رايةً
لتغلب خيل اللات خيل محمد

لكا لمديح الحيران أظلم ليله
فهذا أواني حين أُهدى وأَهتدى

هدا بي هادٍ غير نفسي ونالني
مع الله من طرَّدتُ كل مطرد

أصدُّ وأنأى جاهداً عن محمد
وأُدعى وإن لم أنتسب من محمد

هموا ما هموا من لم يقل بهواهم
وإن كان ذا رأي به ويفنَّد

أريد لأُرضيهم ولست بلائط
مع القوم ما لم أُهد في كل مقعد

فقل لثقيف لا أريدُ قتالها
وقل لثقيف تلك عِيريَ أو عِدى

فما كنت في الجيش الذي نال عامر
وما كان عن جري لساني ولا يدي

قال ابن إسحاق: فزعموا أنه حين أنشد رسول الله ﷺ «ونالني مع الله من طردتُ كل مطرد» ضرب رسول الله ﷺ بيده في صدره وقال: «أنت طردتني كل مطرد».

التطبيق الفعلي يكشف المزاعم والادعاء!!

ومن الناس من يطلق لسانه في المجالس فيزعم أنه يأتي بأفعال خارقة لا يفعلها أحد سواه.. والسبب الذي يحمله على ذلك يرجع في الغالب إلى عدم وجود مجال للتطبيق، فهو لا يخشى أن يُجْرى له امتحان يكشف زيف مزاعمه فيظهره على حقيقته التي بينه وبين واقعها مثل ما بين المشرق والمغرب.

ولعل الفئة التي درجت على هذا النمط من الادعاء الذي يفصله عنها واقع لا يصدقه العقل قد أخذت بأسلوبها الذي تتجاوز به حدود المبالغة. زاوية في ميدان الظرافة والتطرف فاستحب الإصغاء إليها والدخول معها في المحادثة من باب التنذر بها ليس إلا.

وكتب التراث الأدبي لم تغفل هذا الجانب على اعتبار أنه أدب يجب العناية به، فمن ذلك مثلاً ما روي من أنه اجتمع مرة في أحد منتزهات اشبيلية جماعة فيهم أبو بحر صفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨هـ. وأبو الحسن بن الفضل، ورجل يَدّعي أنه يحسن الرمي بالقوس وهو لا يحسنه، وأراد الجماعة أن يتندروا بهذا المدّعي فطلبوا منه أن يصيب طائراً كان واقفاً على غصن شجرة قريبة، فرماه بسهم فلم يفعل شيئاً، فقال صفوان قصيدة في ذلك، فأجابه أبو الحسن بن الفضل المعافري بقوله من قصيدة طويلة:

وصاحب حُلوِ المزاج ممتعٍ
يُصفي السرورَ ويُقدُّ الشجنا



يـحـكـي لـنـا مـا شـاءه تـظـرفـاً
ويـزد هـي بـرمـيـه تـمـجُّـنـا[1]

ومنها:

قـلـنـا لـه قـد أكـتـب الـصـيـد فـقـم
فـأرنـا مـن بـعـض مـا حـدثـتـنـا

فـقـام كـسـلان يـمـطُّ حـاجـبـا
ويـتـمـطّـى بـيـن أيـن ونـى

ومنها:

وعـنـدمـا رمـى حـمـام فـنـن
أخـطـأه ومـا أصـاب الـفـنـنـا

أسـتـغـفـر الـلّـه لـه إن لـم يـكـن
أطـعـمـنـا الـصـيـد فـقـد أضـحـكـنـا

لـو أن رضـوى مـثـلـت مـن كـتـب
لـسـهـمـه لـصـاف عـنـهـا وانـثـنـى

والـمـرءُ مـغـرور بـبـادي رأيـه
ويَـظـهـر الـحـقُّ إذا مـا امـتـحـنـا

○○○○○

---

(١) التماجن: هو خلط الجد بالمزح.

قصيدة بعنوان.. غادة اليابان

والقصيدة التي أخذت مكانها من الجزء الثاني من ديوان شاعر النيل حافظ إبراهيم المولود عام ١٨٧٢م تقريباً والمتوفى عام ١٩٣٢م. تميزت بعنوانها الدال على موضوعها «غادة اليابان» لكن الذي تجدر الإشارة إليه هو أن حافظ إبراهيم قد جعل تلك القصيدة ملونة حيث استهلها بفيض من الحكمة ثم انتقل إلى التغزل. لكن تغزله لم يكن قائماً على المفهوم الذي يحمل معنى التغزل وإنما أراد بتحليقه بخياله في سماء الغزل لفت نظر محبي الغزل، بل جرهم إلى المعنى المقصود وإلى لب القصيدة الذي يترجم موقف تلك الغادة اليابانية من الحرب التي نشبت بين اليابان وبين روسيا واستمات اليابانيون جميعهم في الدفاع عن اليابان بما فيه تلك الغادة التي قال على لسانها حافظ إبراهيم.

نذبح الدب ونفري جلده
أيظن الدبُّ ألّا يغلبا[١]

ثم سألها عن موقفها من الحرب، وماذا ستصنع كغادة يابانية؟ وما الذي ستسهم به؟.

قلت والآلامُ تفري مهجتي
ويْكِ ما تصنع في الحرب الظِّبا؟[٢]

(١) الدب رمز تعرف به روسيا. كما تعرف انجلترا بالأسد. واليابان بالتنين وألمانيا بالنسر.

(٢) كان نشوب الحرب بين روسيا واليابان في ليلة ٩ فبراير سنة ١٩٠٤م وانتهت بالصلح في يوم ٥ سبتمبر عام ١٩٠٥.



فصبت الإجابة في أذنه دونما تردد:

فـأجـابـتـنـي بـصـوت راعـنـي
وأرتـنـي الـظـبـي لـيـثـاً أغـلـبـا

إن قـومـي اسـتـعـذبـوا ورد الـردى
كـيـف تـدعـونـي ألّا أشـربـا

أنـا يـا بـانـيـة لا أنـثـنـي
عـن مـرادي أو أذوق الـعـطـبـا

أنـا إن لـم أحـسـن الـرمـى ولـم
تـسـتـطـع كـفـاي تـقـلـيـب الـظُّـبـا

أخـدم الـجـرحـى وأقـضـي حـقـهـم
وأواسـي فـي الـوغـى مـن نـكـبـا

هـكـذا «الـمـيـكـاد» قـد عـلـمـنـا
أن نـرى الأوطـان أمًّـا وأبـاً[1]

والقصيدة فيها صور وصفية لانفعالات تلك الغادة وتحمسها لوطنها اليابان فهي تبلغ ـ والمعنى بذلك القصيدة ـ أربعين بيتاً ـ. ولا أخال الناقد إلا بعدها مثالاً يجب أن يحتذى في حب الوطن. والدفاع عنه.

○○○○○

---

(١) الميكاد: لقب لملك اليابان.

جسد ناحل وقلب جريح

وبعض مطالع القصائد يكون له وقع ورنين وصدى تعشق الأذن سماعه وتستطيب معناه وأنغامه.

والشاعر إذا ما وفق في اقتناص مطلع متميز بجاذبيته من حيث جودة التركيب وجمال الصنعة. وقوة التعبير. وسلاسة اللفظ. ووضوح المعنى. فإنه يجري على ألسنة الناس. ويستقر في الذاكرة. فلا يكاد ينسى بقدر ما ينسى قائله فكم من الأبيات الجميلة ما هو محفوظ في الصدور ودارج على ألسنة الناس ولا يعرف قائلها إلا القليل منهم.

ويأخذ مطلع القصيدة حينما تعطره رقة التذلل في أساليب الغزل عمقاً وبعداً لا يلبث إلّا ويتعشقه المغنون. فيعمدون إلى تلحينه تلحيناً يجعل كلماته تتناغم مع آلات طربهم باختلاف نغماتها وأصواتها وإيقاعاتها.

فكم من مغن استهواه جمال وعذوبة هذا المطلع:

جسد ناحل وقلب جريح
ودموع على الخدود تسيح

وعلى الرغم من إشاعة هذا البيت. وكثرة المتغنين به من أهل الغناء والطرب في عالمنا العربي. فإن قائله. ـ وكما أسلفت ـ لا يكاد يعرف إلّا عند فئة قليلة بل قليلة جداً من أهل الأدب.

وحتى نقر بالفضل الأدبي لأهله فقد لزم الأمر ذكر قائله مع جزء من القصيدة التي تصدرها البيت السابق.. فقائلها هو.. أبو يحيى وأبو



الفضل عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل بن خمار تكين بن طاشنكين الأربلي المعروف بالحاجري الملقب حسام الدين. وهو جندي من أولاد الأجناد. توفى عام ٦٣٢هـ. وله ديوان شعر تغلب عليه الرقة وفيه معان جيدة... - أما القصيدة فمنها قوله وهو ما يلي البيت المتقدم:

وحبيب مُرّ التجني ولكن
كل ما يفعل المليح مليح

يا خلي الفؤاد قد ملأ الوجـ
ـد فؤادي وبرح التبريح

جد بوصل أحيا به أو بهجر
فيه حتفي لعلي أستريح

كيف أمحو هوى وطرفك كاس
بابلى يطيب منه الصبوح

أنت للقلب في المكانة قلب
ولروحي على الحقيقة روح

رق لي من لواعج وغرام
أنا منه ميت وأنت المسيح

قد كتمت الهوى بجهدي وإن دا
م عليّ الغرام سوف أبوح

القصيدة أطول من ذلك وهي ضمن قصائد ديوان الشاعر المذكور.

○○○○○

سؤال غابت إجابته عن الأذهان!!

ضم مجلس من مجالس الأدب لفيفا من الناس.. فيهم الأديب والكاتب والشاعر والعامي.

وكان الحديث منوعاً. فيه الفكاهة. ورواية الشعر. وسياق أمثلة الحكمة. وشيء من الألغاز والمعميات.. والحضور كلهم ما بين مستمع بإصغاء. ومتحدث بلباقة.

ولقد استوقف. بل شد انتباه الحاضرين سؤال طرحه شخص عامي كان بين الحضور. وهو:

ما هو أحسن شيء وأزين شيء فيما نراه؟. فخاض الحاضرون في الإجابة عليه، وقد كان جلّ إجاباتهم مركزة على أن أحسن شيء يُرى هو الماء والخضرة. ومنهم من جاء بشيء غير ذلك لكنهم لم يأتوا بالإجابة الصحيحة.. فَطُلب إليه أن يسمعهم الإجابة على سؤاله.. طالما أن إجاباتهم لم تكن صائبة.. فقال: كأنكم لم تقرأوا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦].. ثم قال: فهل هناك تتزين أفضل من تزين الله الذي خص به السماء؟!!. فكانت الإجابة شافية كافية. فذهب الحاضرون في القول بأنهم كانوا يلتمسون الإجابة في كل شيء في الطبيعة من حولهم عدا التفكير في السماء. والنص القرآني الذي يحقق ذلك بلا خلاف.

قلت في نفسي بعدما انقض المجلس: والله لكأن هذا العامي قد اطلع على إجابة الأعمى الذي قيل له: ما تحب أن ترى؟ قال وجه

السماء. قيل له: لم خصصته بذلك دون سائر المرئيات الحسان؟ قال: لأن الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات: ٦]. فهو أحسن مما وصفه الله عزَّ وجلَّ بأنه زينة.

أما الشعراء فقد نظروا في صفحة السماء فتعشوا جمالها وقالوا أشعاراً كثيرة في تشبيه نجومها. أذكر من ذلك قول أبي طالب الرقي:

وكأن أجرام النجوم لوامعاً
دُررٌ نُثرن على زجاج أزرق
والفجر فيه كأنه قطر الندى
ينهلُّ من نسج الغمام المغدق

وقول ابن المعتز واصفاً نجم الجوزاء:

كأنما الجوزاء في أعلى الأفق
أغصان نور أو وشاح من ورق

وقول الخالدي:

وليلة ليلاء في اللو
ن كلون المفرق
كأنما نجومها
في مغرب ومشرق
دراهم قد نثرتْ
على بساط أزرق

وقول الشيخ شرف الدين المصنف:

وليل سهرناه كأن سماؤه
بساطٌ من الديباج يُنْشر أزرق
تلوح به غر النجوم كأنما
تبدّد في تلك البسائط زئبق

الشعراوي واحد ممن امتدحوا طه حسين شعراً!!

ومما وجد بين أوراق عميد الأدب وصاحب التصانيف والمؤلفات التي ساهمت في إثراء المكتبة العربية الدكتور طه حسين من قصائد موجهة له.. قصيدة للشيخ متولي الشعراوي خصه بها وأثنى عليه فيها ثناء جميلاً.. ويرجع تاريخها إلى عام ١٩٥٥م. وقد قيل أن الشيخ الشعراوي استقبله بها حينما زار الدكتور طه حسين المملكة العربية السعودية إذ كان الشيخ الشعراوي مقيماً في المملكة آنذاك.. وهذا التاريخ يعده بعض النقاد بالنسبة لطه حسين بداية تحول من فورة الشباب النزقة إلى محاولة تأكيد الذات والوقوف على أرض الواقع التي تبرعمت فيها النزعة الإسلامية في نفسه.

أما قصيدة الشعراوي فقد قيل أنها واحدة من المطولات وأنها تزيد على مائة وعشرة أبيات. وأنها متنوعة الأفكار وذات مداخلات لها ارتباط بواقع الحياة أنذاك حيث لم يقف بها على امتداح طه حسين وإنما تعداه ليتحدث عن التاريخ والحياة الراهنة للأمة العربية والإسلامية حيث يقول منها:

حي وفد النهي وركب الرجاء
وتنظّر يا شرق بعث العلاء

شمر الغرب أجمعون عن السا
ق وهبوا للبنية البيضاء

يا ركاب المنى وصالك أضحى
قاب قوسين من نبع الخباء

* * *

يـا ولاة الأمـور حـسـبـكـم الـلّـه
مـعـيـنـاً عـلـى تـمـام الـبـنـاء

كـان فـي الاحـتـلال أعـذار قـوم
فـتـولـى لا عـذر بـعـد الـجـلاء

قـل لـلـيـلـى لا تـيـأسي قد خطونا
وعـلـى الـلّـه أمـر ذاك الـلـقـاء

* * *

يـا حـداة الآمـال بـالـلّـه زيـدوا
فـمـهـج الـركـبـان حـلـو الـحـداء

وثـقـوا بـالـمـنـى فـإن زمـام الـعـلـ
م قـد صـار فـي يـدي عـداء

والجدير ذكره أن الشعراوي كان شاعراً قبل أن يكون عالماً جليلاً مفسراً. وكنت حصيلة شعره ديوان مطبوع وسمه بـ «من بنات الفكر» وقد أشرت إلى شاعريته وجانب من حياته في موضوعات تقدمت في الجزء الثالث من هذا الكتاب «الأدب المثمن» تحت عنوان «الشعراوي كان شاعراً قبل أن يكون مفسراً» و«أحدث قصيدة للشعراوي».

○○○○○

تصابي الشيخ

والشيخ الذي لا ينكسر هوى نفسه. ولا يدخل وقار الشيب قلبه. ولا يمنحه بياض الشيب الذي تخلل لمته ورأسه قدره وقيمته. فإنه يدخل به مشيبة في دائرة التصابي. وهناك يأخذ دوره كشاب يمارس نزق الشباب وسوء أدبه. وخسيس فعله. فلا يكاد يعطي الشيب وقاره ولا الكبر مقامه. فتراه عابثاً بحياته. ولاهياً بوفايته. يلقي إلى منادى الهوى سمعه. ويصم عن الناهي عن المهالك أذنه. فما هو بفعله هذا إلا هيئة مخالفة لفكره. وطبع غير موافق لمستوى سنه.. وسر ذلك يرجع إلى أنه قد سار وفقاً لهوى نفس نزقة في جسم مسن.

وهذه الظاهرة قد تعشقها فئة من الشيوخ الذين غلبت عليهم أهواؤهم فانقلبت عندهم موازين الإدراك. وانكفأت عندهم مكاييل الفهم. وانعكست اتجاهاتهم فساروا في عكس الطريق التي يأخذ بها عادة المسنون الذين ارتووا من معين الحكمة. فارتقوا بأنفسهم حينما بلغوا السن التي يحسن بهم أن ينشدوا فيها كل معنى يترجمه الوقار ويصفهم به في أحسن وصف ومن إسهامات الشعراء في وصف الشيخ المتصابي. وطبيعة تصابيه وما يرتبط به أو يدور حوله من علامات استفهامية. قال الشاعر أحمد العاصي:

شيخ بقارعة الطرق معمم
نظراته عن شأنه تتكلم

نتف اللحى والرأس أتقن صبغه
والدهر ينقض كل ما هو مبرم



كهل ولكن في ثياب شبابه

أتخاله عن شيبه لا يعلم

متكسر في سيره متقمش

في ثوبه إذ ما يرى يتبسم

ما زال في لذات عهد شبابه

بل بالكهول وشيبهم يتبرم

يخفى علينا شيبه وهو الذي

من سوء طلعته الليالي تنقم

○ ○ ○ ○ ○

أترى صبياً والمشيب مدبدب

بعظام جسمك والممات منمم

هيا إلى صرف الممات فإنما

هو مخمد ما في حياتك تضرم

○ ○ ○ ○ ○

الفارق في تجلي عاطفة الأبوة في هذا العصر.
وما قبل مائة عام!!

وحينما نتحدث في هذا العصر بالذات عن العاطفة الأبوية التي تجعل قلبي الأبوين معلقين بأبنائهما.. فإن الحديث يطول ويتشعب تشعباً تغلفه مسحة حقيقية من المخاوف التي تعتور ذينك القلبين.. كيف لا وقد كثرت السبل وتنوعت المغريات التي تقود النشئ إلى الإحباط. وتميت فيه همم الرجولة التي غايتها بلوغ الأهداف السامية.

وإدراك واقع عاطفة الأبوة في هذا العصر نتبينها من خلال مقارنة بسيطة بين أب كان يرعى أطفالاً قبل مائة سنة أو أقل. وأب يعيش في هذا العصر.. فعاطفة الأب الذي عاش ما قبل منتصف القرن الرابع عشر الهجري ينتابها خوف من ضياع مستقبل ابنه بسبب الغفلة عن تعليمه وتثقيفه في مجالات الحياة..

أما الأب الذي ما بعد تلك الحقبة فإنه تعتوره مخاوف كثيرة لا خوف واحد. ولعل أدناها الخوف من ضياع فرص التعليم. وكثرة الطرق الممهدة للصرف عنه بشتى أساليب الإغراء التي ينعكس الاستمتاع بها في مرحلة الشباب إلى ندم وبؤس ينتظران القادم إليهما من بوابة المستقبل فيحيلانه إلى عضو مشلول في جسد أمته.

أما أي تلك المخاوف فهي المصيبة المدمرة التي عاشت في سلوكيات بعض الشباب وإخلاقهم وهوت بهم إلى عمق الضياع الخلقي والفكري والاجتماعي. وهي التي تعرف اليوم بالمخدرات التي هي أم الضياع والفساد ومعول الهدم والتخريب والإحلال.



وهذه المخاوف ما من قلب أم أو أب في هذا العصر إلّا وتطرقه... ومن الوصايا الشعرية التي يزجيها الآباء إلى أبناء تلك الوصية التي نظمها الشاعر إبراهيم هاشم شطا. والتي منها قوله:

مكن يمينك في يميني
وأعطني عهد الرجال

واجعل لسانك صادقاً
الصدق من صفة الكمال

ما دمت تمشي مستقيما
كاملاً حسن الفعال

دع عنك كل محرم
متع حياتك بالحلال

كن طيباً ذا خلق
واترك ألا عيب العيال

اصبر وصابر واجتهد
لا بد من جنبي المنال

ما ضاع من عرف الطريق
المستقيم فلا يبالي

لا تبتئس إن الحياة
سعيدة في كل حال

القصيدة أطول من ذلك بكثير وقد قرأتها في العدد ١١٤٠١ من جريدة المدينة الصادر يوم السبت ٩ محرم عام ١٤١٥هـ.

○○○○○

لنقف بقوة ضد دعاة البنيوية!!

إن الطعن في الدين الحنيف والتشكيك في لغة القرآن الكريم الذي هو آخر الرسالات ما زال يتوالى من قبل أعداء العقيدة المحمدية. وينتقل بالوراثة اللعينة ممن كذبوا الرسول ﷺ من فجر الإسلام إلى يومنا هذا مروراً بمحنة القول بأن القرآن مخلوقاً. ووصولاً إلى المذاهب الهدامة كالماركسية وغيرها. ووقوفاً على الأفكار المعادية للغة والتراث والتي تحاول جاهدة قطع ما اتصل بلغتنا العربية وبموروثنا من تراث الأدب الإسلامي.. تلك الأفكار التي تعرف اليوم بالبنيوية التي احتضنها ضعفاء العقول.

ولعله من البديهي أن يكون هناك تصدياً لهجوم أفكار تلك الفئات الضالة المضللة وذلك من قبل أبناء الإسلام الذين يؤذيهم الطعن في الإسلام والتشكيك في صحة العقيدة عن طريق محاولة هدم اللغة. فينتصرون له بألسنتهم وبما ملكت أيديهم.

والناظر في حال هذا العصر يدرك تكالب قوى الكفر وألسنة المردة الذين يحاولون بكل ما أوتوا من فصاحة وذرابة ألسنة. وجرأة على المحاجة والمجادلة الباطلة التي لا يألون جهداً في أن يلبسوا بها الحق ظناً منهم وأمنية خاسرة بأن تكون لهم الغلبة في تضليل المسلمين وصرفهم عن معتقدهم بهدم لغة القرآن.

أقول هذا حيث قرأت في الآونة الأخيرة قصيدة للشاعر أيوب صديق بعنوان «شمعة في الظلام» كشف في جزء من أبياتها الإتهامات الخطيرة التي كان المراد بها بتشكيك المسلمين بأن القرآن ليس وحياً

من الله. وإنما هو كتاب خطه محمد عن معارف من القساوسة والكهان. لعنهم الله بإفكهم وأخرس ألسنتهم وأذاقهم الخزي في الدنيا والبوار في الآخرة.

ومن أبيات القصيدة التي ترجم فيها أيوب صديق منكر أقوالهم. هذه الأبيات:

ولم يكن القرآن وحياً منزلاً
فذاك هراء بات في الناس ماضياً

كتابك مخطوط بيمنى محمد
وليس كما قالوا فقد كان قاريا

أصاخ لقوم عندهم علم ما مضى
وعلمه الأقوام ما كان جاريا

معارف أحبار أقاموا بيثرب
وحكمة قسيس بنجران ثاويا

وما وطئ السهل الحجازي مرسل
من الملأ الأعلى إلى اللّه داعيا

لقد كبرت منهم وما ذاك محدث
به ملأ الأفك السنين الخواليا

فأشرب ما قالوا وأضحى مقلداً
يردد أقوال العلوج كماهيا

فسار كما ساروا بدنياه ضائعاً
تفنن هداماً من الدين عاريا

قصيدة أطول من ذلك بكثير وقد قرأتها في جريدة الشرق الأوسط العدد ٥٤١٠ يوم الاثنين ٢٠/٩/١٩٩٣م.

المنفقون والمقترون

والفرق بين الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويجعلون التقتير عنواناً ومسلكاً لجمع المال وكنزه ـ وبين الذين يؤثرون على أنفسهم وينفقون مما رزقهم آخذين بالقول المأثور ـ أنفق ما في الجيب يأتي ما في الغيب ـ هو فرق واضح وآثاره ظاهرة على حياتهم بصفة عامة.

أما في الآخرة فقد بين الله حال كل منهم فقال تعالى في الذين ينفقون أموالهم ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ٢٢] وسورة آل عمران: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤].

والإنفاق المطلوب هو أن لا يكون فيه إسراف ولا تقتر وذلك امتثالاً لقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

أما الذين يبخلون بأموالهم ويكنزونها فقد قال تعالى فيهم في سورة التوبة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥]. وقال تعالى في الذين يبخلون بأموالهم: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠]. وفي الدعاء: اللهم أعط كل منفق خلفاً وكل ممسك تلفا. والذين ينفقون أموالهم هم عباد ويتقربون بها إلى الله. والذي يخزنونها هم عبيد أموالهم وإلى هذا أشار الشاعر محمد يحيى حجاج في أبيات من قصيدة له. وهي قوله:

وما بخلوا بمال اللّه يوما
على أهل الحقوق أو الحدود

ففي أموالهم حق يؤدىٰ
بأمر الرازق العدل المجيد

خزائنهم من الإحسان تربو
بها الأموال في رغد سعيد

ولكن العبيد لكل قيد
من الدينار للقرش الزهيد

تكبلهم سلاسل من «فلوس»
عن الإنفاق تبا للقيود

ستحمى ثم تحمى في سعير
لتكوى في الجباه وفي الخدود

وفي جنب أقضت في حياة
وفي ظهر فذا صدق الوعيد

وقوله منها:

وهذا ما كنزت بلا زكاة
فذق ما كنت تكنز من وقود

○ ○ ○ ○ ○

البنان الذي يمكن عقده!

والبنان من أعضاء الجسد التي تقع تحت أعين الغزليين من الشعراء. وهي أيضاً من الأعضاء التي خصت في الذكر الحكيم. فقد جاء ذكرها في قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة: ٣ ـ ٤].

والبنان من الأطراف التي كثيراً ما ترمقها العين. وتلتف حولها النظرات. فالرقة والنعومة واللطافة والرخاوة وغير ذلك مما يستحسن أن تكون عليه من صفات الجمال. ولما لجمالها من جاذبية للعين فقد صوب كثير من الشعراء أنظارهم نحوها فأدرجوها فيما جاءوا به من غزل رقيق.. فهذا النابغة الذبياني واسمه زياد بن معاوية بن سعد بن حباب بن جناب الذبياني. وهو شاعر جاهلي توفي سنة ١٨ قبل الهجرة النبوية قد قال من جملة أبيات قصيدة غزلية يصف فيها رقة البنان ولطافتها وما يضفيه الخضاب عليها من حسن وجمال.

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه
فتناولته، واتقتنا باليد

بمخضب رخص كأن بنانه
عنمٌ يكاد من اللطافة يعقد

نظرت إليك بحاجة لم تقضها
نظر السقيم إلى وجوه العود

ولعل صاحب اليتيمة قد نظر إلى قول النابغة الذبياني في إمكان عقد البنان بسبب رقتها ولطافتها في بيت جاء ضمن أبياتها.. أقول



صاحب اليتيمة حيث دار حول تحقيق قائلها خلاف بين المحققين والرواة. لكن القول الذي يقرب إلى الترجيح في التحقيق يشير إلى أن قائلها هو العكوك. وهو على خلاف ما قيل أنها لدوقلة بين العبد[1].

وإزاء هذا سوف يكون لي وقفة أخرى مع ذكر هذا الالتباس الذي حمل كثير من الشعراء على ادعائها لنفسه.

أما البيت المتعلق بإمكان عقد البنان فهو:

ولــهــا بــنــان لــو أردت لــه
عــقــد بــكــفــك أمــكــن الــعــقــد

وبعده يقول:

والــمــعــصــمــان فــمــا يُــرى لــهــمــا
مــن نــعــمــة وبــضــاضــةٍ زنــد

والــبــطــن مــطــوى كــمــا طــويــت
بــيــض الــريــاظ يــصــونــهــا الــمــلــد

وبــصــدرهــا ثــديــان خــلــتــهــمــا
كــافــورتــان عــلاهــمــا نــد

وبــخــصــرهــا هــيــف يُــزيّــنــه
فــإذا تــنــوءُ يــكــاد يــنــقــد

○○○○○

(١) وقصة القصيدة اليتيمة ـ أو الدعدية ـ سبقت من الكتابة عنها في الجزء الرابع تحت عنوان «اليتيمة».

سؤال الخزانة

والخزانة. صندوق عرف بعدما تطورت تكنلوجيا الصناعة بـ «الصندوق التجوري» وقد تفنن صناع هذا النوع من الصناديق في نوعية جديدة فأدخلت على المادة الحديدية التي يصنع منها خصائص فولاذية ومواد ذات مقاومة للحريق وغير ذلك ما يبعد الخطر عن أي شيء يحفظ بداخله حتى مما قد تسببه تغيرات الطبيعة والعوامل الجوية.

كما تفننوا في التحكم في وسائل إغلاقه وفتحه فوصلوا بذلك التفنن إلى اختراع قفل يثبت فيه تثبيتاً خفياً ويعمل بطريقة أتوماتيكية تخضع لأرقام سرية لا يعرفها إلا صاحبه.

قلت وهذا الصندوق كثيراً ما كان مخزناً للنقود والحلى وأحياناً للصكوك والوثائق الرسمية وغيرها من المستندات المرتبطة بالحركة التجارية.

وهذا الصندوق يشرح صدر صاحبه عندما يفتحه ويجده مملوءاً بمثل ما تقدم ذكره مما يستوجب التخزين والحفظ. ولهذا فإنه قلما نجد بيتاً من البيوت في عصرنا هذا خالياً منه.

وصندوق بمثل هذه الأهمية من حيث ارتباطه بالحياة وبالحركة التجارية اليومية. لا بد أن يكون للأدباء معه مساءلة خاصة الشعراء منهم. أقول هذا حيث قرأت قصيدة للشاعر محمد يحيى حجاج. سأل فيها صندوقه.. هل امتلأ أم لا؟ وهو سؤال أطلقه ليصف حالة من يضيع حياته في سبيل ملء خزانته من المال.. ومن يكون في حالة وسط.. يعمل لدنياه. ويتعبد لأخراه. وذلك بقوله منها:

سألت خزانتي هلا امتلأت
فكان جوابها.. هل من مزيد؟

أأقضي العمر أجمع فانيات
وأشقى للحجارة والحديد

فو أني حييت سجين مال
وقدر لي أسى العمر المديد

فلا عمري حييت ولا حياتي
سوى عدم تشابه بالوجود

سألت النفس عن جدوى حياتي
فقالت لي: هنا بيت القصيد

حياتك أن تكون مع العباد
وليست أن تكون مع العبيد[1]

عباد اللّه غايتهم جنان
بها دار المقامة والخلود

ودنياهم وسيلتهم إليها
ومرقاهم إلى الأمل البعيد

○○○○○

---

(١) في ذلك إشارة الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة. وفيه أن النبي ﷺ قال: «تعس عبد الدينار. وعبد الدرهم. وعبد الخميصة.. الحديث».

الغربة وجانب من أنواع دلالاتها!!

وإذا كان المرء غريباً بما تعنيه كلمة ـ غريب ـ وبما لها من دلالة تقرر أنه في بلد ليس ببلده. وعند أهل ليسوا بأهله. فإنه وبلا شك يعاني من ألم الغربة التي تصيب بعض الغرباء بسبب تذكر أهليهم. أو بسبب ما يقاسونه من انتقاص ونظرة احتقار توجه إليهم من أعين أهل البلد الأصليين.. وهذا النوع من جانب طبيعة الغربة يعد مشكلة لا يتحقق التخلص منها ومن همومها إلّا بترك البلاد لأهلها والعودة إلى البلد الأصلي الذي لا يرى فيه من حيث العلاقة الاجتماعية من يكدر صفو حياته. بل إنه ليجد في أهله وذويه ورفاق صباه ما يدخل السرور عليه ويشعره بقيمته الاجتماعية.

أما إذا كان الغريب غريباً في بلده وبين قومه. فإن غربته إن كانت بسبب سوء علاقة بينه وبين قومه فإن هناك عدة عوامل تعالج تلك الغربة. لعل أهمها تحكيم العقل في دراسة الأسباب التي تكفل إزالة العوائق. والقبول بمسعى الوسطاء حينما يكون للوساطة دور في ذلك. ثم الأخذ بمبدأ التسامح وتحطيم نشوز الطبع الذي يحمل على الخروج على التقاليد والعادات وأساليب التعامل.

أما إذا كانت غربته في بلاده قد صنعها مستعمر وأوجدها باغ. ووطد أركانها ظالم. فإنها هي الغربة التي توافق المعنى المجازي للغربة أيما موافقة. وهي الغربة التي تزيد على الغربة الحقيقية بالأحزان والآلام والترويع والاضطهاد. وهي الغربة التي لا يغير مفهومها ومعناها إلّا المقاومة والتفدية والتصميم على طرد من أوجد دلالتها.

ولقد نظر إلى هذا النوع من أنواع الغرابة ودلالتها كثير من الشعراء ووصفوها بعدة أوصاف مؤثرة. منهم الشاعر: شيخ عمر الباز الذي وجه عدداً من الأسئلة لغريب التقى به.

قابلته فسألته ما شأنه
فيم نأى عن موطن الآباء؟

فيم مضى يبغي انطلاقاً هائماً؟
فيم يضيق بفسحة الأجواء؟

فيم يرى الدنيا سواراً ظالماً
فيم يخاف إثارة الأصداء

فيم؟ وفيم؟ ألف فيم؟ إنني
لا. ما كففت لولا رجع بكاء

أعياه تسآلي فلم يقو على ال
كتمان يعصره أليم عناء

فمضى يبث أساه عبر قصيدة
دموية أبديّة عصماء

يروى انتفاضاً فيم كان رحيله؟
إذ طاب في الأهوال برد عزائي

فكانت الإجابة على تلك التساؤلات محصورة في قوله:

قال: الزمان بضره قد مسّني
فأراني أهل مودتي أعدائي

○○○○○

ابن الحجاج وكلاب عز الدولة بختيار!!

والشاعر لا يسكت إن جاع. ولا إن شبع. ولا يصبر على أذى. ولا يسامح مخطئاً ولا يتجاوز عن مستعف.. وإنما ديدنه. ودأبه. إما التوجع في حال جوعه. أو الهجاء في حال شبعه. أو المديح في حال ترجيه. أو المفاخرة في حال مطاولته. أو السخرية والاستهزاء المشوب بالحسد لأي صوت يعلو على صوته أو حتى يجانسه أو يزاحمه على مورده وأماكن تواجده.

والشاعر بصفة خاصة هو أذل ما يكون عندما تخلو يده. وينسد باب الرزق في وجهه. وتضيق عليه سبل معيشته. فتراه يخذل نفسه. ويسلك بها طرق المسألة التي لا تبعد في أسلوبها عن أسلوب التسوّل. ومد يد الاستجداء...

ولعله لا يفوتني الاستثناء فتكون الغلبة للتعميم في الحكم إذ أن هناك في الشعراء من يتعفف ولا يتكسب بلسانه. بل هو أشد الناس في طلب رزقه بعرق جبينه.. ولكن هذه الفئة لا تشكل في مجموعها غالبية إذ أن معظم الشعراء استجدائيون وأصحاب سؤال ومد يد واستطعام...

ومن صور استجدائهم ما رواه الثعالبي في كتابه الشهير «يتيمة الدهر» من أن الشاعر الحسين بن أحمد بن الحجاج المتوفى سنة ٣٩١هـ قد رأى كلاب عز الدولة بختيار تطعم لحوم الجدا. وهو في جوع ومسغبة فقال:

رأيـــت كـــلاب مـــولانـــا وقـــوفـــا

ورابـــضـــة عـــلـــى ظـــهـــر الـــطـــريـــق



فــمـــن ورد لـــه ذنـــب طـــويـــل
يـعـقـفـه ومـهـلـوب خـلـوقـي

تـغـذّى بـالـجـد فـوددت أنـي
وحـق الـلّـه خـركـوس سـلـوقـي

فـيـا مـولاي رافـقـنـي بـكـلـب
لآكـل كـل يـوم مـع رفـيـقـي

أرى الـقـصـاب قـد أضـحـى عـدوي
لـشـؤم الـبـخـت والـمـلـحـي صـديـقـي

فـلـو أنـي اقـتـصـدت لـمـا وجـدتـم
سـوى الـحـلـتـيـت داخـل بـاسـلـيـقـي

جـفـانـي الـلـحـم وهـو شـقـيـق روحـي
فـمـن يُـعْـدِي عـلـى ذاك الـشـقـيـق

كـأن الـلـحـم فـي صـوم الـنـصـارى
تـوهَّـمـنـي ابـن عَـمٍّ الـجـاثـلـيـق

ومن هذه الصورة الشعرية نتبين أن طابع الاستجداء قد غلبت خفة روح المداعبة. فهو يطلب إلى بختيار أنه يجعله رفيقاً للكلب لا أن يكون الكلب رفيقاً له. وذلك لضمان أكل اللحم معه كل يوم:

فـيـا مـولاي رافـقـنـي بـكـلـب
لآكـل كـل يـوم مـع رفـيـقـي

○○○○○

وفي الشعر المعاصر من الجزالة ما فيه

وإذا ما ابتعدنا بالحديث عن شعر الحداثة. وحر الشعر. ونثره الذي تزكم رائحته الأنوف. ويؤذي الآذان بطنينه.. واتجهنا ملتمسين عزاء فيما تولده قرائح الشعراء المعاصرين من أصيل الشعر.. فإننا نجد فيه ـ أي في شعرهم ـ ما يرقى به إلى المقارنة بشعر القدامى من حيث القوة والبلاغة والرقة والجزالة والإبداع في المعنى. والتفنن في صياغة المفردة. والتحكم في البناء وفنية العرض المستكمل للصورة الشعرية بالأسلوب الذي ينشده القارئ. ويطرب له.

ومثل هذا الشعر الذي لم تخل منه ساحة عصرنا. بل إنها لتغص والحمد لله به وبالشعراء الذين امتدت شاعريتهم من تراثنا الأدبي المجيد فألهمهم بعبق أصالته ما نتلقاه منهم الآن. وهذه الصلة الوثيقة بتراثنا الشعري قد جعلتهم يتعشقون الكلمة المفردة. ويتفننون في رسم القافية الأصيلة.

ولا أخال أحداً يميز الأصالة والجزالة والجودة حينما يقرأ هذه الأبيات من قصيدة الشاعر المعاصر يحيى السماوي:

رفـــع الـــنـــقـــاب وســـلَّـــمـــا
وبـــحـــاجـــبـــيـــه تـــكـــتّـــمـــا

ودنـــا فـــأغـــمـــض مـــقـــلـــتـــيـــه
تـــغـــنـــجـــا.. وتـــبـــســـمـــا

ووجـــدتـــنـــي بـــعـــبـــيـــره
رُغـــم انـــطـــفـــائـــي مـــضـــرمـــا

فـتـعــثـرت شـفــتـي بـصــوتـي
وانــــكـــفـــأت مـــتـــيــمـــا

ومنها قوله:

ورمـــيـــتُ أصـــداقـــي عـــلـــى
عـــيـــنـــيـــه حـــيـــن تـــقـــدمـــا

فـــأعـــاد وضـــع نـــقـــابـــه
كـــيـــدا وقـــال مـــتـــمـــتـــمـــا

صـــبـــراً عـــلـــى عـــطـــش الـــهـــوى
إن كـــنـــت حـــقـــاً مـــغـــرمـــاً

فـــالـــمـــاء أعـــذب مـــا يـــكـــون
إذا اســـتـــبـــد بـــك الـــظـــمـــا

إلّا ويتخيلها من نسج أحد شعراء العصر الأموي أو العباسي.. والحقيقة أنها ما هي إلا جذور ممتدة بأصالتها من تلك الحقب التي كانت مصانع الشعر فيها عامرة. وأسواق بضاعته قائمة ومزدهرة.. فالشعراء يملون. والرواة يحفظون. والوراقون يكتبون بتباهي بجمال الخطوط وبصنعة الكتابة.

○○○○○

عدم الخروج من الحيرة يوجد في النفس كآبة!!

من الناس من يلج به تفكيره. وترمي به خيالاته المشتتة في فيافي تنعدم الرؤية في أجوائها. وتضيع من أمامه الدروب التي كانت أقدامه تتحرك فيها.. فيقف. وقد انسدت أمامه المسالك التي كان يظنها مؤدية إلى ما ينشده من راحة واطمئنان نفسي.. فلا يجد بداً من الاستسلام للحيرة. والالتفات يمنة ويسرة بحثاً عن طريق آمن يعود من خلالها إلى حيث كانت بدايته. ومنطلق رحلته التائهة.

والبوح بمثل هذه الحيرة. أو بغيرها مما يجعل المرء عاجزاً عن تحديد المسار الذي تخرج به من دائرة أية مشكلة تمثل عقبة في درب الحياة التي يطمع في أن يمارسها بكل حرية أدبية ترقى به إلى حيث يكون في مجتمعه فرداً علماً يشار إليه بالبنان.

والذين يمنون بالحيرة من الناس ولا يجدون مخرجاً يخلصهم من شراكها هم في عداد البؤساء والمكتئبين. لأن طوق الحيرة حينما يقوى ويصعب التخلص منه. يضرب في أعماق النفس بسهم الكآبة فتتكسر الآمال من فوقه. وتضمحل معالم التطلعات في ظله.

ومن الشعراء الذين وقفوا حيارى. وترجموا حيرتهم في أسلوب شعري.. الشاعر السعودي المعاصر حسين عجيان العروي حيث يقول في أبيات له:

مـن أيـن أبـدأ؟ والـطـريـق دوائـر
والأبـــجـــديـــة هـــوّة ســـوداء

والبوح مصطخب السكون معاقلي
أبـــديـــة - مـــوبـــؤة - صـــمـــاء



زمن انتشاري في الظنون قصيدة
أعلى رمادي ترقص الأضواء؟

ألق عبيري بضوع ودهشة
مزروعة. وتشنج.. وصفاء

وبحيرة. عشبية.. وجزائر
لونية. ومشاعر زرقاء

هذي السبيل.. موارد مأفونة
والسائرون على السبيل ظماً

أنا في غدي - إن كان ألف رواية
مكذوبة أحداثها أشلاء

من أين أبدأ؟ والمتاه نهاية
حتمية.. والعابرون.. هباء

إنها صورة قد ترجم بها الشاعر جانباً من طبيعة الحيرة التي كثيراً ما تنتاب ذوي الطموحات. والاتجاهات التقدمية.

○○○○○

النونية.. من أسباب طرد اليهود من غرناطة!!

منع أبو إسحاق الألبيري واسمه.. إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي لكنه اشتهر نسبته إلى مدينة البيرة وتوفي عام ٤٦٠هـ قصيدة نونية هي من أشهر القصائد التي حملت المسلمين على طرد اليهود من غرناطة بل قيل هي المحور الرئيسي الذي أهاب بالمسلمين فأجمعوا أمرهم وطهّروا إدارة الحكم من دنس اليهود.

أما الدافع الاجتماعي والعقيدي. والأسباب السياسية التي حملت الألبيري على صنعها فهي كالتالي:

في القرن الخامس الهجري وبالتحديد من عام ٤١٣هـ ـ ٤٨٤هـ كانت الأندلس تحت حكم المسلمين ويحكمها آنذاك الأمير باديس بن حيوس بن ماكن بن مناد الصنهاجي.. وقد استوزر اليهودي إسماعيل بن نغريله الذي كان يبغض العرب والمسلمين أشد البغض.. بل جعله الوزير الأول وذلك بعد وفاة صمويل فاستقطب اليهود في إدارة الدولة حتى أصبحت في أيدي اليهود. ومضى في تسليم المراكز والمناصب الهامة في الدولة لمن يعرفه بشدة الكراهة للعرب والمسلمين من البربر من الأندلسيين. وازدادت الحالة سوءاً بعد ما غاب باديس بن حيوس عن سدة الحكم بسبب شيخوخته وضعفه عن القيام بإدارة الحكم.

وعلى أثر ذلك. ومع استفحال أمر اليهود. ضج المسلمون في غرناطة. حيث أصبح الحكم بكل وضوح ولأول مرة في أيدي يهودية... فأدرك القاضي أبو إسماعيل الألبيري أن غضبة المسلمين تحتاج إلى شعر حماسي يزيد من غضبها. ويدفع بها إلى استرجاع إدارة

الحكم من اليهود. فأنشأ نونيته المشهورة التي بلغت أبياتها خمسين بيتاً ما للتكلف فيها أية سمة ولا لأثر الصناعة فيها أي ملمح وإنما هي تعبير شعري أتصف بمعنى السهل الممتنع الذي امتلأ تحريضاً على اليهود وتحميساً للمسلمين ولوماً لباديس الذي وضع ثقته في اليهودي إسماعيل بن نغريله.. منها قوله:

ألا قل لصنهاجة أجمعين
بدور الزمان وأسد العرين

لقد زل سيدكم زلة
تقر بها أعين الشامتين

تخيّر كاتبه كافراً
ولو شاء كان من المسلمين

فعز اليهود به وانتخوا
وتاهوا وكانوا من الأرذلين

ومنها قوله:

أباديس أنت امرؤ حاذق
تصيب بظنك نفس اليقين

فكيف اختفت عنك أعيانهم
وفي الأرض تضرب منها القرون

ومنها قوله:

وكيف استنمت إلى فاسق
وقارنته وهو بئس القرين

وقد أنزل اللّه في وحيه
يحذر من صحبة الفاسقين

عودة إلى نونية الألبيري

لقد ألمحت في موضوع تقدم تحت عنوان «النونية.. من أسباب طرد اليهود من غرناطة». إلى تأثير نونية الألبيري في نفوس العرب والمسلمين الذين غضبوا حينما استوزر باديس بن حيوس الصنهاجي اليهودي يوسف بن إسماعيل بن نغريله. وسلمه مقاليد الحكم بعدما ضعف عن القيام بمسؤلياته بسبب الشيخوخة.

وفي هذه العجالة أرى أن أنقل بعضاً مما قرأته من أقوال لكبار نقاد الغرب حول قيمة ومفهوم وهدف تلك النونية التي دوت في غرناطة. بل في الأندلس عامة. وأيقظت ثورة عارمة نجحت في طرد اليهود الصهاينة. حيث قتل منهم في يوم واحد ستة آلاف يهودي غير الأسرى والجرحا.

يقول أميليو غرسه في فقده لتلك القصيدة: «والحق أن القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة. ولا نعرف إلا في القليل النادر أن أبياتاً من الشعر لعبت دوراً سياسياً مباشراً في التاريخ السياسي لأمة من الأمم فكهربت العزائم. ودفعت بها في سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق وشحذ السيوف للقتل كالدور الذي لعبته هذه القصيدة.

وإن كان تعليق على هذا النقد. فهو قولي. بأنه كلمة صدق قالها من ليس له انتماء للعرب ولا تربطه بهم رابطة. وإنما هو التجرد والنزاهة في أسلوب النقد.

وبعد نهاك أيها القارئ الكريم نماذج من أبيات القصيدة التي وصفتها في الموضوع المتقدم بالسهل الممتنع. كيف لا وهو يحرض الصنهاجي بأن لا يتخذ من اليهود خدماً له:

فلا تتخذ منهم خدماً
وذرهم إلى لعنة اللاعنين

فقد ضجت الأرض من فسقهم
وكادت تميد بنا أجمعين

تأمل بعينك أقطارها
تجدهم كلاباً بها خاسئين

وكيف انفردت بتقريبهم
وهم في البلاد من المبعدين

ثم يخص في تحريضه على اليهودي ابن نغريله. فيقول:

فبادر إلى ذبحه قربة
وضح به فهو كبش ثمين

ولا ترفع الضغط عن رهطه
فقد كنزوا كل علق ثمين

وفرّق عراهم وخذ مالهم
فأنت أحق بما يجمعون

ولا تحسبنْ قتلهم غدرة
بل العذر في تركهم يبعثون

○○○○○

قاتلة العفة ومدمرة البيوت

والقوادة مؤنث القَوَّاد. والقُوَّاد بضم القاف واحد القادة. والقادة مصدر القائد. والاسم من ذلك كله القيادة.

وفي معاجم اللغة العربية. كلسان العرب لابن منظور: القود نقيض السوق فالقود من الإمام. والسوق من الخلف.

وللقيادة معاني مجازية كثيرة تأتي كثيراً في سياق الأساليب الكلامية التي يراد بها التعبير عن بعض الأشياء التي لا يستدل على مفهومها أو طبيعتها إلّا بمعنى القيادة. من ذلك قولهم: العصا قائد الأعمى.. ونباح الكلب في الليل قائد للأضياف. وغير ذلك.

أما القوّادة بتشديد الواو. والتي أخذت هذه الصفة من فعلها القبيح المنافي للأخلاق والقيم الإنسانية والشريعة المحمدية والتعاليم السماوية. فهي تلك التي حملها الشيطان على تخريب البيوت بتبسيط أمر الزنا بالاستدراج بالأساليب التي تشبه المقود الذي يجعل في رقبة الكلب أو الدابة فيقاد بها.

وسلاسة الحديث الذي يجري على لسان القوادة له فعل السحر في النفس الضعيفة.

روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: فمن اللهجُ باللذة السَّلِسُ القيادة للشهوة.

والقوّادة لا تأتي في بداية الأمر إلا بما تقبله النفس وتطمئن إليه حتى تجعل حديثها مسموعاً بل معشوقاً. فإذا رأت أنها قد أصبحت



موضع الثقة أخذت في التدرج إلى أن تهون الأمور وترتع بسامعها في الحمر ثم تجتره بكل سهولة إلى حيثما تريد. إلى ساحات الخنا والفجور.

أما وصفها فقد نظمه الشاعر أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف ينتهي نسبة إلى عمار بن ياسر الصحابي المعروف قيل أنه ولد حوالي عام ٥١٥هـ أو قبله ومات مقتولاً عام ٥٥٩هـ في أبيات لا فسق فيها. منها قوله:

قـوّادة تـفـخـر بـالـعـار
أقـودُ مـن لـيـل عـلـى سـار

ولّاجـة فـي كـل دار ومـا
يـدري بـهـا مـن حـذقـهـا دار

ظـريـفـة مـقـبـولـة الـمـلـتـقـى
خـفـيـفـة الـوطء عـلـى الـجـار

لـحـافـهـا لا يـنـطـوي دائـمـاً
أقـلـق مـن رايـة بـيـطـار

قـد رُبِّـيـتْ مـذ عـرفـتْ نـفـعـهـا
مـا بـيـن فُـتّـاك وشُـطـار

جـاهـلـة حـيـث ثـوى مـسـجـد
عـارفـة حـانـة خـمـار

بـسَّـامـة مـكـثـرة بـرهـا
ذات فـكـاهـات وأخـبـار

تـكـاد مـن لـطـف أحـاديـثـهـا
تـجـمـع بـيـن الـمـاء والـنـار

مغفرة الناقد للحداثة
تشمل التائب من شعر الحداثة!!

وأعني بشعر الحداثة ذلك الشعر الذي من تعريفاته ـ الشعر الحر ـ و ـ الشعر المنثور ـ والذي ولد ميتاً في سوح الأدب الأوروبي. فالتقطه بعض من أوهمته ظنونه ممن عرف يمسك بالقلم من عالمنا العربي بأنه سيكون طبيبه الذي سينعشه ويعيد إليه حياته تلك الحياة التي اطمئن الأديب والشاعر الروسي والأوروبي على انقضائها.

وإنه لمن عجيب الأمر أن نعتني بلقيط لا نعرف نسبه عناية تسبب الهلاك لذي النشب الأصيل فينا.

والسؤال عن الفئة التي احتضنت ذلك اللقيط يبرز حينما نريد معرفة من يستهويه التقليد الأعمى ويركض خلفه ويحدث نفسه بالتعملق وقامته منحنية. . . وبالسبق وأقدامه في الوحل راسخة ـ وما ذاك إلا فئة من الشباب ـ أقول فئة لأننا نقرأ لبعضهم شعراً إذا نسب متصل بتراثنا الأدبي الذي تعجبنا صناعة شعره. واستقامة قافيته. واتساق تفعيلته. وانتظام وزنه. واكتمال قوة بنائه وجمال أسلوبه.

والناقد المتعصب للغته ودينه وأدبه وتراثه. وأصالة ثقافته يأخذ في عين الاعتبار كل متخل عن احتضان ذلك اللقيط. ويعود إلى الإلتحام مع ما يربطه به في الأدب والمعرفة من نسب تراثي عميق. ويغفر بالتالي لما قد سلف من شطحات التقليد.

والأخ سعد الحميدين قد كان واحداً من أولئك الذين كتبوا ذلك



الشعر المنثور وأوغل في كتابته ثم أدركته الأصالة العربية ونسب الوراثة الأدبية. فاتجه لصناعة القصيدة المقفاة. وباتجاهه هذا وجد الترحيب من كل شاعر وأديب... من نماذج ذلك الترحيب به قصيدة قالها الشاعر السعودي المعاصر محمد حسن العمر. والتي منها قوله لسعد الحميدين:

مشيتَ على الطريق المطمئن
وفضلت الصعود على التدني

مشيتَ على الطريق ولم تُكدر
مزاجا للخليل ولا ابن جني

ومثلك من يحلق في سماء
أظلتنا ومثلى من يهني

ومثلك من يهيم بكل حسن
ويختار البنين على التبني

ومنها قوله:

أخي سعد سيبقى الشعر شعراً
وإن جل بساحته التجني

وبعد إشارة إلى التزامه بالشعر المقفى. وحبه للتراث الأدبي يقول:

ولكني ملأت بكل شوقي
كؤوس الود من أعماق دني

فإن تشرب زلالاً فهنيئاً
وإن عفت فلا تغضب لأني

أرى شعر الحداثة في التدني
يساوي قهوة من غير بُنٍّ

أي الفراق أشد فضاعة..
موت الحبيب أم ثبوت الرضاعة؟!!

من المصائب الاجتماعية التي توجد في النفس هماً وحزناً. ما يقوم على بتر الصلة القائمة على المحبة وعمق التواد بين الزوج وزوجه بصورة مفاجئة تجعل المرء يقف مبهوتاً وفي حالة ذهول ونظرة تحسر لا يشفع له فيها جريان دمع. ولا عبارات توجع وتألم. ولا وساطة صديق ولا استنجاد رفيق ولا استصراخ قريب.

أما الباتر الذي لا يخضع متى ما وقع لأية مؤثرات إرادية وتلطفات نفسية. ويمضي ليفصل ذلك الإئتلاف الزوجي فصلاً كاملاً ونهائياً فإنه يأتي بأسلوبين... الأول منهما ـ الموت ـ والثاني ـ ثبوت الرضاعة بين الزوجين بعدما يفضي كل منهما لصاحبه. ويشرب كل منها كأس حب صاحبه ـ.

والسؤال الذي يطرح نفسه حول معرفة أيهما أشد قسوة وألماً على القلب.. لا بد أن تقوم الإجابة عليه على مقارنة بسيطة لا يختلف على نتيجتها اثنان.. وهي كما يلي:

الموت.. أمر محتم والنفس أي نفس بشرية متيقنة بوقوعه. ومؤمنة بنزوله لا محالة. وهذا الإيمان يخفف من ألم الفراق الذي يسببه. لأنه الواقع المضاد لاستمرارية الحياة.. كما أن مشاهدة الجنائز التي تدفن يومياً هو من أعظم ما يوجد في النفس قناعة بحتمية الفراق.

أما اكتشاف الرضاعة بين الزوجين بعد مضي زمن من زواجهما فهو أشد وقعاً وأعظم ألماً على النفس من الموت لأن النفس في هذه الحالة ليست متوقعة بأن هذه هي الطريقة التي لا بد أن ينتهي إليها



صفو الحياة.. ففراق يسببه اكتشاف الرضاعة يورث في النفس حزناً لا يخففه إلّا الإيمان بحكم المشرع العظيم.

ومن أدبيات الفصل بسبب الرضاعة ما تم من فراق بين الشيخ عبد الله بن علي العيد القادر وزوجته لثبوت الرضاعة بينهما.. وفي ذلك كتب له بعض أصدقائه شعراً فيه تعزية ومواساة ومنهم الشاعر عبد المحسن بن عبد العزيز الباهلي إذ يقول:

أئن رحل الحبيب وعز وصلاً
وأرخى في ستره فوق الحجال

ولو كان الرجوع بها قريباً
فكيف ولا الرجوع بأي حال

فَسَلِّ النفس عنها يا بن ودي
فإن فؤادها لا بد سالي

وقد أجابه الشيخ عبد الله العبد القادر وبقصيدة منها قوله:

وددت وجامع الأشباح أني
لقيتك قبل لقيان الحبال

ولكن كان حسبي منك أني
وصلت بحبلك الأقوى حبالي

خيالاً ضيفنا لما يزالا
بمجتمع الهنا طول الليالي

فهذا يا صفي النفس واعلم
بأني لم أضق ذرعاً بحالي

وما لي حالة أرجو سواها
سوى التشمير في طلب المعالي

من أسباب النجاة محاسبة النفس في الحياة!!

وأهل الحرث والفلاحة والزراعة.. يقولون. إن الزرع إذا ما استتم واصفر لونه وحان حصاده لا تنفعه سقياه.. وتعبيرهم عن ذلك بلهجتهم «ما ينفعه سقيه إلىٰ جاء حصاده» وهذا القول يحمل معنى صادقاً وإشارة واضحة تنطوي على مثل يساق عند معالجة أية قضية لها مساس بالنفس البشر وقد استحال حلها لاستفحال أمرها.. وكأنما هم بذلك يحضون الغافلين على محاسبة أنفسهم وهم أشداء أقوياء.. ويحذرونهم من الأخذ بمبدأ التسويف الذي قد يستمر إلى أن تنزل المنية بساحاتهم ويصبحون حصادها.. وحينذاك يقفل باب التوبة في وجوههم ولا ينفعهم وقتئذ توبة تتفوه بها ألسنتهم.

وفي نهاية قصة فرعون مع موسى عليه السلام التي أخبرنا الله بها بقوله في سورة يونس: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾. ووالله إن في رد هذه التوبة وعدم قبولها لعبرة لمن يعتبر. لأن التحلي عن الإصرار على الكفر والمعصية حينما تلوح بوادر المنية هو أشبه ما يكون بالماء الذي يسقى به زرع قد حان حصاده وليس بنافعه سقيه.

والذي يلتمس أسباب النجاة بمحاسبة النفس وهو في صحة جيدة حريّ بأن يفوز بما يؤمله وأن يدخل في زمرة من قال تعالى فيهم: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٤٠].

والتحذير من هوى النفس الذي يمضي بالشخص إلى الشقوة. وينتهي به إلى الهلكة قد كان له في الشعر مكان يستوقف القارئ ويحمله على التأمل في المصير المحتوم. فمن ذلك ما قاله أبو العتاهية من قصيدة له:

لو بذلتُ النصح الصحيح لنفسي
لم تذق مقلتاي طعم الرقاد

لو بذلتُ النصح الصحيح لنفسي
همتُ أخرى الزمان في كل واد

وما قاله أبو العلاء المعري:

دنياي فيكِ هوى نفسي ومهلكها
والماء يودي بنفس الوارد الصادي

وقوله أيضاً:

والنفس أمّارة بالسوء ما اجترحت
إلا وسيء طبعي قائل عودي

وقوله:

وإخال نفسي حين تفقد شخصها
تلقى الذي عملته قبل معاد

ويقول أيضاً في دمعة التائب التي تبوخ لها جهنم:

اذكر إلهك إن هببت من الكرى
وإذا هممت لهجعة ورقاد

احذر مجيئك في الحساب بزائف
فاللّه ربك أنقد النقاد

تغشى جهنم دمعة من تائب
فتبوخ وهي شديدة الإيقاد

محاسبة النفس في الدنيا
سبيل إلى يسر الحساب في الآخرة

إذا كانت التجارة تقوم على مسك وضب الدفاتر المحاسبية. ومراجعتها بكل دقة لمعرفة ميزان رأس المال والأرباح المحققة. بين فترة من الزمن وأخرى فإن مراجعة الأعمال والأفعال مع النفس ومحاسبتها على اجتراح كل صغيرة وكبيرة محبطة للأعمال. وباخسة للثواب أو قائمة على كل ما لا يتفق وسلوكيات الإسلام الأدبية بصفة عامة. بالإضافة إلى كل ما هو ضروري لكل من يريد أن يرفع من قيمة ودائعه المدخرة له في بنك الآخرة ويجعل محاسبته يسيرة كما وعد الله بذلك عباده المتقين حيث يقول تبارك وتعالى في سورة الانشقاق الآية ٧، ٨: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾.

وهذا الحساب الذي سيجعله الله يسيراً لا يتم الوصول إليه أو الحصول عليه إلّا بحساب سابق للنفس في يوم ينفع فيه الحساب ويكون للتوبة فيه مجال ولتدارك الذنوب فيه متسع لأنه ـ والمعنى بذلك اليوم الدنيوي ـ ميدان عمل يفضي لا محالة إلى يوم حساب بلا عمل. وهو اليوم الآخر الذي يحتاج فيه كل امرئ إلى كل ما من شأنه تثقيل موازينه ليكون في عيشة أخروية راضية. ونجو من الهاوية.

وللحث على محاسبة النفس مجال واسع في الشعر.. فعلى سبيل المثال قول الشاعر ابن المقرب واسمه جمال الدين أبي عبد الله بن محمد بن علي بن المقرب المولود بالإحساء عام ٥٧٢هـ والمتوفى سنة ٦٢٩هـ.

والمرء في الدنيا حديث سائر

تقضي الرفاق به مدى أوقاتها

فاختر لنفسك ما يقال ضحى غد

إذ تطلب الأخبار عند رواتها

أما أبو العتاهية واسمه: اسماعيل بن القاسم مولى عنزة والذي سبق أن كتبت تعريفاً موجزاً عنه في الجزء الرابع من هذا الكتاب فقد قال في محاسبة النفس الشيء الكثير.. منه قوله:

أيها المغرور ما هذا الصبا

لو نهيت النفس عنه لانتهت

أنسيت الموت جهلاً والبلى

فَسَلَتْ نفسك عنه ولهت

وقوله:

ألا من لنفس في الهوى قد تمادتِ

إذا قلتُ قد مالتْ عن الجهل عادت

وحسبُ امرئ شراً بإهمال نفسه

وإمكانها من كل شيء أرادت

وقوله:

وكم قد دعتني همتي فأجبتها

وكم لَوَّشتني همتي فَتَلَوَّثتُ

معاشرة الإنسان عند أمانة

فإن خنت إنساناً فنفسي الذي جنت

ooooo

اعتراف بظلم النفس

وعامل تمحيص التداخل بين حب النفس وكراهتها يحقق نتيجة الاعتراف بظلمها في كثير من الأحيان إن لم يكن في معظمها.. وهي ـ وأعني بذلك النفس ـ وإن كانت تحدث صاحبها وتأمره بفعل أشياء قد تكون مخالفة لسلوكيات الأدب. أو تحمله على عمل يرقى بتنفيذه مراتب الشرف. فإن الإنسان هو السلطة المنفذة لما تعرضه من آراء. فالإيجابي منها يكون بطبيعة الحال بعيداً عن أي انتقاد يمس ذاته ـ أما الجانب السلبي منها فإنه متى ما طاوعها في تنفيذه فإنه يكون قد ظلمها ـ وظلمها في مثل هذه الحالة هو عدم مخالفتها والابتعاد بها عن مهاوي الردى وعما يجرح كرامته ويدنس خلقه وسلوكه. وعندئذٍ يحصل منه الاعتراف بظلمها إذا لا مناص من قول الحقيقة ـ وصور الاعتراف بظلم النفس كثيرة منها ما هو في القرآن الكريم ـ فعلى لسان بلقيس مثلاً قال تعالى في سورة النمل آية ٤٣، ٤٤: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ وقال تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام في سورة القصص الآية ١٦: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾. وقال تعالى في سورة الأعراف آية ٢٣ على لسان الأبوين آدم وحواء عليهما السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

وحول ظلم النفس هذا جاء في الشعر قول الإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني المولود في مدينة كحلان باليمن عام ١٠٩٩هـ

والمتوفى سنة ١١٨٢هـ واصفاً الدنيا ومؤكداً على الرفق في مواجهتها:

تبدل منها كل شيء بضده
فإيّاك أن تغتر منها برتبة

فصحتها والعز والمال بعدها
سقام وذل وافتقار بقلة

كذا عكس ذا فارفق بنفسك إنما
لها ما قضاه اللّه رب البرية

ولقد أشار ابن المقرب واسمه الأمير جمال الدين علي بن مقرب العيوني المولود بالأحساء عام ٥٧٢هـ والمتوفى سنة ٦٢٩هـ إلى أنه ظلم نفسه بإهانتها في سبيل إرضاء قومه وذلك بقوله:

وارغب بنفسك أن تقيم ببلدة
عصفورها يسطو بشهب بزاتها

إن يرض قومي الهوان فيّ فطالما
عمداً أهنت النفس في مرضاتها

أما أبو العلاء المعري فله فلسفة مع النفس ربما تكون خاصة. حيث يرى في مجازاتها شيئاً من المعادلة. حيث يقول:

عذيري من صورة قد عثت
ومن كف دافنها إذ حثت

نفس تمنت لذيذ الطعام
فلما أصابت مناها غثت

فلا ترثين لها إنها
لجسمك في ضعفه مارثت

مجازاة من ظلم نفسه

ومهما بذل الإنسان من جهد فكري في البحث في علاقة النفس بصاحبها فإنه لا يقف على نهاية حتمية يضع عندها نقطة نهاية تدل استقصاء مفهوم ارتباطها بصاحبها بأي حال من الأحوال. لأن علاقتها به ذات وجوه متعددة. وألوان مختلفة.. وإذا ما أخذنا بجانب واحد منها وهو الجانب الشرعي الذي يلزمنا بصيانتها وعدم الإلقاء بها في المهالك... فإننا نجد في القرآن الكريم ما يدل عى أن هناك مجازاة على ظلم النفس إذ يقول تبارك وتعالى في سورة القصص آية ١٦ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾. ويقول جل شأنه في سورة النحل آية ١١٨ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ ويقول جل من قائل عليماً في سورة هود الآيات ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾. ويقول تبارك وتعالى في سورة إبراهيم الآية ٤٤، ٤٥ ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾.

شعر في ظلم النفس. ومجازاة ظالمها:

يقول الشاعر المشهور أحمد شوقي:

قاتل النفس ولو كانت له
أسخط اللّه ولم يرض البشر

ساحة العيش إلى اللّه الذي
جعل الورد بإذنٍ والصدر

لا تموت النفس إلّا باسمه
قام بالموت عليها وقهر

ويقول يحيى بن طالب:

إذا أنت لم تحسب لنفسك خاليا
أحاط بك المكروه من حيث لا تدري

ويقول الحسين بن مطير:

فنفسك الزمْ عن أمور كثيرة
فمالك نفس بعدها تستعيرها

فلا الجود عن فقر الرجال ولا الغنى
ولكنه خيم الرجال وخيرها

وقد تخدع الدنيا فيمسى غنيها
فقيراً ويغني بعد بؤس فقيرها

وكم طامع في حاجة لا ينالها
ومن آيس منها أتاه بشيرها

○○○○○

متى يكون الإنسان ظالماً لنفسه؟!!

إن الحديث عن النفس ومسؤولية الإنسان عنها يطول ويتشعب لكنه لا يخرج في غالبيته عن مدار القول المأثور ـ النفس أمانة عند الإنسان.. ووديعة عند صاحبها ـ ولهذا كان حفظها واجباً عليه. والمحافظة على سلامتها من الأخطار فرض إهماله والعبث به تجنى عليها. وسبب من أسباب تعريضها لعقاب الله... لأن الجنوح بها أو موافقتها لما تسوِّله له من فعل المتكبرات وارتكاب المعاصي والآثام التي فيها محادة لله يعد ظلماً لها.. قال تعالى في سورة الأعراف آية ٢٣ مخبراً جل شأنه بما قاله الأبوان ـ آدم وحواء عليهما السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ وقال تعالى في سورة البقرة آية ٢٣١ مبيناً صورة من صور ظلم النفس: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾. وقال تعالى في سورة سبأ آية ١٩: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ وقال تعالى في سورة النحل آية ٢٨: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وقال تعالى في سورة النساء آية ٩٧: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

وبعد فالآيات التي تتحدث عن النفس كثيرة ولعل فيما تقدم كفاية كشاهد على ظلم النفس. لنتعرف على بعض من الأشعار التي أشير فيها إلى النفس. وذلك كقول الشاعر البوصيري في إحدى قصائده:

والنفس كالطفل إن ترضعه شبّ على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

واخس الدسائس من جوع ومن شبع
فرب مخمصة شرّ من التخم

وخالف النفس والشيطان واعصهما
وإن هما محضاك النصح فاتهم

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم

ويقول الشاعر المعاصر محمد إبراهيم جدع من قصيدة له:

جرد النفس من الغش وما
يبغض اللّه كخبث وحرام

ويقول أبو العلاء المعري واصفاً حالة انعكاس النفس على صاحبها:

أسرار نفسك في البلاد كأنها
أسرار وجهك ما عليه لثام

وناجى أبو العتاهية نفسه فقال:

يا نفس كوني عن الدنيا مباعدة
وخلفيها فإن الحق قدامي

يا نفس ما الذخر إلّا ما انتفعتُ به
في القبر يوم يكون الدفن إكرامي

إذا أغفل التاريخ ذكر صاحب العمل الجيد..
تسابق الناس إلى ادعائه!!!

والقصيدة التي تعرف بـ «اليتيمة» أو بـ «الدعدية» هي الأعمال التي أغفل التاريخ ذكر قائلها. فتسابق الشعراء من الناس إلى ادعائها. لكنه ما تقرر ما يقطع الشك باليقين بأن فلاناً من الشعراءِ هو صاحبها وقائلها الحقيقي.

ولقد أمعن الدكتور صلاح الدين المنجد في البحث عن معرفة صاحبها الحقيقي فجاء على ذكر كثير من الأقوال التي حاول أصحابها الترجيح أو قطع الشك بأن قائلها هو فلان من الشعراء وقد اعتمد في بحثه على رواية القاضي علي بن الحسن التنوخي الذي لم يعط الحكم القاطع بأن قائلها فلان.

ونتيجة لذلك الالتباس الحاصل حول تعيين قائلها. قال الشنقيطي: إن أربعين من الشعراء حلفوا على انتحالها ثم غلب عليها اثنان هما.. أبو الشيص والعكوك العباسيان..

أما المبرد فقد قال: إنها القصيدة التي لا يعرف قائلها.

ولقد جاء في دراسة للعلامة عبد العزيز الميمني أنها عزيت إلى سبعة عشر شاعر كل منهم قد ادعاها وهو يكذب في دعواه.

وكما أنه اختلف في نسبتها إلى شاعر معروف فقد حصل اختلاف في ألفاظها. وكذلك حصل اختلاف بين الرواة في عدد أبياتها فمن قائل أنها ٦٠ بيتاً ومن قائل أنها ٦٣ بيتاً... وما هذا الاهتمام الحاصل في



تحقيقها إلا نتيجة لجودتها التي فرضت بها نفسها كقصيدة من نوادر القصائد وأشهرها. كيف لا. وقد اشتملت على الوصف والغزل. والحكمة في أسلوب بديع ونغمة جميلة. فمن الوصف الذي جاء نتيجة للوقوف على الأطلال.

أبلى الجديد جديد معهدها
فكأنما هو ريطةٌ جرد

من طول ما تبكي الغيومُ على
عرصاتها ويقهقه الرعد

فكست بواطنها ظواهرها
نوراً كأن زهاءه بُرْد

ومن الغزل قول قائلها في التشبيب بدعد.

وتريك عرنيناً به شمم
وتُريك خداً لونه الورد

وتجيل مسواك الأراك على
رتل كأن رضا به الشهد

الجيد منها جيد جازئة
تعطو إذا ما طالها المَرْد

ومما يجري مجرى الحكمة في هذه اليتيمة قول قائلها:

فالسيف يقطع وهو ذو صدأ
والنصل يفري الهام لا العمد

هل تنفعنّ السيف حليته
يوم الجلاد إذا نبا الحدُّ

ظلم النفس في نصوص من القرآن وأبيات من الشعر

ولقد تكرر ذكر ظلم النفس في عدد كثير من آي القرآن الكريم.. وقد كانت نصوص آيات ظلم النفس واضحة من حيث المجازاة... ففي سورة الروم آية ٩ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩)﴾... وفي سورة العنكبوت آية ٤٠ قال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾... وفي سورة النساء آية ٦٤ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤)﴾. وفي الآية ١١٠ من نفس السورة يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠)﴾.. وفي سورة فاطر آية ٣٢ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)﴾.. وفي سورة التوبة آية ٣٦ قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)﴾... وفي سورة التوبة أيضاً آية ٧٠ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ولقد نظر بعض الشعراء إلى مكانة النفس ومدى تأثيرها على صاحبها... فمن دون ملاحظاته وتقريره عن النفس الشاعر أبو عثمان بن لنون التجيبي وذلك بقوله:

ثلاث مهلكات لا محالة
هوى نفس يقود إلى البطالة
وشيخ لا يزال يطاع دأباً
وعجب ظاهر في كل حاله

ومما يروى لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه:

صن النفس واحملها على ما يزينها
تعش سالماً والقول فيك جميل
ولا ترين الناس إلا تجملا
نبا بك دهر أو جفاك خليل

أما فتيان الشاغوري أبو محمد فتيان بن علي جمال الدين الأسدي المولود عام ٥٣٠ والمتوفى سنة ٦١٥هـ فقد وصف طبع النفس بقوله:

والنفس تواقة لكن يطامنها
إذا اشرأبت حجى أرسى من الجبل
فالعمر ظل على الإنسان ومنتقل
وليس في الأرض ظل غير منتقل

وقد صور الشاعر هبة الله البغدادي جانباً من همم النفس بقوله:

لولا حجاب أمام النفس يمنعها
عن الحقيقة عما كان في الأزل
لأدركت كل شيء عز مطلبه
حتى الحقيقة في المعلول والعلل

النفس ثلاثة أنواع

وحينما أقول إن النفس ذات أنواع ثلاثة. فإن مرجعي في ذلك هو القرآن الكريم.

فالنوع الأول من أنواع النفس. . ـ النفس الأمارة بالسوء. والتي ورد ذكرها في قوله تعالى في سورة يوسف آية ٥٣: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾.

والنوع الثاني جاء في قوله تعالى في سورة الفجر الآيتين ٢٧، ٢٨: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرْضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾﴾.

أما النوع الثالث فهي النفس اللوامة. قال تعالى في سورة القيامة آية ١، ٢: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾. . وقد ذكر الطبري في تفسير بعضاً من أقوال العلماء في معنى ـ اللوامة ـ فمهم من قال: هي: اللؤوم. ومنهم من قال: هي. التي تندم على ما فات وتلوم عليه. وقال آخرون: بل اللوامة: الفاجرة. وقال آخرون. بل هي: المذمومة. . ثم قال رحمه الله: وهذه الأقوال التي ذكرناها عمن ذكرنا عنه. وإن اختلفت بها ألفاظ قائليها فمتقاربة المعاني وشبه القول في ذلك ظاهر التنزيل أنها تلوم صاحبها على الخير والشر وتندم على ما فات.

ولقد نظر الشعراء إلى طبيعة النفس وتعاملها مع صاحبها من عدة وجوه فكان لهم رصد بأسلوب شعري. لما أدركوه من معرفة لبعض من جوانب طبيعة النفس. ففي عدم تحميلها ما لا تطيقه قال أحدهم:

ما كلف اللّه نفساً فوق طاقتها

ولا تجود يد إلّا بما تجد



وفي حملها على محبة من أحسن إليها بقول المتنبي:

وقـيّـدتُ نـفـسـي فـي ذراك مـحـبـة
ومـن وجـد الإحـسـان قـيـداً تـقـيـدا

أما أبو الفتح البستي واسمه علي بن محمد بن الحسين بن يوسف البستي المولود في نحو ٣٣٠هـ والمتوفى تقريباً سنة ٤٤٠ فقد وزع النفس إلى ثلاثة أنواع حيث قال:

لـكـل امـرئ مـنـا نـفـوس ثـلاثـة
يـعـارض بـعـضـاً بـعـضـهـا بـالـمـقـاصـد

فـنـفـس تـمـنـيـه وأخـرى تـلـومـه
وثـالـثـة تـهـديـه نـحـو الـمـراشـد

ويقول ابن خاتمة الأندلسي واسمه أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري المريْني الأندلسي المتوفى سنة ٧٧٠هـ محذراً مما تأمر به النفس من سوء:

إذا مـا دعـتـك الـنـفـس يـومـاً لـريـبـة
فـحـاذر عـقـابَ الـلّـه فـهـو شـديـده

فصبر الفتى عما يريد أخف من
تـصَـبُّـره كـرهـاً لـمـا لا يـريـده

أما أبو العتاهية فقد قال في النفس:

هي النفس إن تصدقك تمنحك نصحها
وأنـت عـلـيـهـا إن صـدقـت شـهـيـد

ويقول من قصيدة أخرى:

إذا ما صدقت النفس أكثرت ذمها
وأكثرت شكواها وأقللت حمدها

مقلوب القثاء.. والقلم

يقف الكثير من الشعراء مفكراً في بعض أسماء الأشياء من حوله. فيقوده تفكيره في بعض الأحيان إلى صنع شيء يساهم به في إيجاد نوع من أنواع الأدب. وذلك كصنع المعميات. والألغاز. والأحاجي. وما إلى ذلك مما ينظم في سلك هذا النوع من الأدب الذي أصبح تراثاً يعتنى به.

والنموذج الذي أطرحه لذلك في هذا السياق. هو ما صنعه أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله المعروف بابن تيمية الحراني المولود عام ٥٤٢هـ والمتوفى عام ٦٢٢هـ من أبيات في القلم.. قال ابن المكبرين. واسمه عبد الله بن محمد بن عمار بن المكبرين: وقد أنشدنيها. وهي قوله[1]:

وراقـمٍ كـأرقـمٍ يـمـشـي عـلـى
قـائـمـتـيـن فـي بـيـاض يـقـق

يُـرْجـعـه بـعـد الـبـيـاض حـالـكـا
مُـدبـجـاً فـي بـهـجـة ورونْـق

فـسِّـرْهُ لـي وخـذه مـن مـقـلـوبـه
مـفـسَّـراً مـنـكـراً فـي الـمـلـق

---

(١) نقلاً عن تاريخ ـ إربل ـ القسم الأول ـ تأليف شرف الدين أبي البركات المبارك بن أحمد اللخمي الأربلي. المعروف بابن المستوفي ـ المتوفى عام ٦٣٧هـ والذي حققه سامي بن السيد خماس الصقار.

هـذا الـيـراع حـيـن يـبـدو راقـمـاً
على البياض من عجيب المنطق

أقـسـم ذو الـعـرش بـه مُـصَـدِّقـاً
مُـعـظـمـاً لـشـانـه الـمـصـدِّق

وَحَـدُّه مـن الأيـادي نـعـمـة
فـي سـورة مـوسـومـة بـالـعـلـق

وبعد نقله لتلك الأبيات التي انتهت بشرح ما كان معماً في بدايتها واتضح أنه القلم وأن مقلوبه هو ـ ملق ـ. قلت: والملق معناه: المداراة. وفي لسان العرب: الملق: الود واللطف الشديد. وأصله التليين وقيل: الترفق والمداراة: يقال: مَلِقَ ملقاً. وتملَّق وتملّقه. وتملق له تملقاً. وتَمِلَّاقا.

قلت ثم بعد ما ذكر ابن المكبرين الأبيات المتقدمة قال: وأنشدنا. والمعنى بذلك فيما يبدو، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن تيمية المتقدم ذكره شعراً في القثاء. وهو قوله:

انـظـر إلـيـه أنـابـيـبـاً مـنـضـدةً
مـن الـزمـرد خُـضـراً مـا لـهـا ورق

إذا قـلـبـت اسـمـه بـانـت مـلاحـتـه
وكـان مـفـهـومـه.. إنـي بـكـم أثـق...

○○○○○

عندما لا ينصف الأستاذ ينفتح باب العتاب!!

والكلام عن المعلم أو الأستاذ ربما كان فيه متعة خاصة إذا مال بنا الحديث أو انتحى المنحى الذي نحاه أستاذ عصره أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المولود عام ١٥٠هـ والمتوفى سنة ٢٥٥هـ.

أما إذا أخذ الجانب الإيجابي من حياته ـ والمعني بذلك الأستاذ ـ العملية والعلمية فإنه يلزمنا وضع الحق في نصابه.. وأن نتجرد من سلبيات القول. ونصفه بما هو أهل له من حيث طبيعة عمله. ومركزه الاجتماعي.

ولعل أكثر الناس عرضة للمساءلة والمجادلة. والأخذ والرد. وبحث أنواع الموضوعات التي تتطلب حالتها.. ووضعها على محك الفكر هو الأستاذ. وهو الذي يُنْظر إلى رأيه في ذلك. بل يؤخذ به ويعتمد.. ومن هنا يكون سباق المتتلمذين عليه قد جاء جاداً في حفظ ما ينتهي إليه رأيه في الموضوع الذي تتحدد دراسته طلباً للفوز بالنجاح حين يتقرر تقييم تحصيل التلاميذ لتأهيلهم إلى مرحلة دراسية أخرى.

لهذا. فهو إن لم ينصف في التقرير ويهضم حق المجد في الدارسة والمجتهد في التحصيل العلمي. فسينال العتاب لا محالة.

ومن صور العتاب الشعري الذي ألقي على بعضهم ـ أي بعض الأساتذة غير المنصفين ـ هذه الصورة الشعرية التي سجلها الشاعر السعودي صالح الخنين يوم كان طالباً بكلية الطب بجامعة الملك فيصل بالدمام. وذلك عام ١٤١٥هـ في قصيدة كان الغرض منها التعبير عما



اختلج في نفسه كشاعر يطلق خياله حينا ويلامس الحقيقة حينا أخرى..
من تلك القصيدة قوله:

خلجت أعماق جوفي زفرة
في خباياها عتاب وأنين

وتهادت عبرة في عبرة
ترسم الوجد على وجه حزين

أيها القائل ظنا لا تقل
إن درب الظن أنقاض وطين

قف بباب الحق عدلاً إنني
قد رأيت الحق وضاح الجبين

إيه أستاذي.. أما تعرفني؟!!
إنني سبط الخوالي السالفين

قد نهلت العلم عذباً صافيا
وجعلت السمت خلاً وقرين

ومنها قوله:

هدموا مجدي على ميزانكم
فتهاوت كفتي للصاغرين

ومنها قوله:

تلك عتبي وأنا تلميذكم
سأظل الدهر بالفضل مدين

○○○○○

الوطن.. والمواطنة!!

ومن قصص النضال دون الأوطان ما يكون عبرة يترسمها من يخالج ضميره أدنى فتور يسري منه إحساس له خفق تترجم حركاته التراخي عن القيام بواجبه نحو وطنه ومنها ما يوقد جذوة الحماس الملتهبة في النفس نحو الوطن.

ومن قصص خذلان الوطن التي من أبطالها بعض الشعوب العربية التي رزحت تحت نير الاستعمار ردحاً من الزمن ما يعطي درساً حيًّا على سوء عاقبة الاستكانة.. أما التحمس له فهو إشارة صادقة على صدق المواطنة.

وإذا ما حاولنا دراسة وجود ظاهرة اختلاف الحماس بين الشعوب إزاء أوطانهم فإننا نخرج بحصيلة مكونة من جزئين... الأول منها وهو الأقوى والأشد تأثيراً على النفس الجهل بمعنى المواطنة.. والثاني يتمثل في نسيان ما كان للوطن من فضل على مواطنه إن لم يكن جحداناً لفضله. وكفراً بما أسداه من ظل وماء ونعم يعجز عن الإحاطة بأنواعها وعدها فهي أكثر من أن تعدو وأجلّ من أن تحصى.

وأما الذين يقدرون الوطن حق قدره. ويبذلون مهجهم وأحوالهم رخيصة في سبيل حريته وشموخ أنفه واستقلاله بسيادته فهم أولئك الذين عرفوا حقه تمام المعرفة. واعتبروا ذلك الحق ديناً مستحقاً عليهم سواء كانوا من الطبقة الأمية أو المتعلمة التي امتلأت نفوسها بحب الوطن.. فصاروا جنده الذين يهبوه لحمايته ويردون كل باغ أو معتد عليه... وصورة حب الوطن لا تعبر عن الدفاع عن حدوده فحسب وإنما تتجاوز



ذلك لتصل إلى تحضيره وتمدينه وتجميله وتعميره. والدخول به في منافسات مضارية مع الأوطان المجاورة له... والبوح بحبه بالأسلوب الشعري ما هو إلَّا أغنية تعشقها الأذن.. كيف لا ونحن لا نمل سماع مثل هذا النشيد الوطني للشاعر عبد الرزاق بلبلة الذي منه قوله:

روحـي ومـا مـلـكـت يـداي فـداه
وطـنـي الـحـبـيـب وهـل أحـب سـواه

وطني الذي قد عشت تحت سمائه
وهـو الـذي قـد عـشـت فـوق ثـراه

منـذ الـطـفـولـة قـد عـشـقـت ربـوعـه
إنـــي أحـــب ســـهـــولـــه وربـــاه

وطـن الـحـبـيـب وأنـت مـوئـل عـزة
ومـــنـــار إشـــعـــاع أضـــاء ســـنـــاه

فـي كـل لـمـحـة بـارق أدعـو لـه
فـــي ظـــل حـام عـــطـــرت ذكـــراه

فـي مـوطـن بـزغـت نـجـوم نـبـيـه
والـمـخـلـصـون استشهدوا في حـمـاه

في ظـل أرضـك قـد تـرعـرع أحـمـد
ومـــشـــى مـــنـــيـــبـــاً داعـــيـــاً مـــولاه

يدعو إلى الدين الحنيف بهديه
زال الـــظـــلام وعـــززت دعـــواه

○○○○○

المتنبي لا يعترف بالانتماء إلى وطن معين!!!

وعندما نريد معرفة الحياة الاجتماعية التي عاشها الشاعر المعروف أبو الطيب المتنبي من حيث الانتماء الوطني فإننا لا نحصل على أكثر من قولهم إنه ولد بالكوفة عام ٣٠٣هـ في محلة تسمى كندة فنسب إليها وليس من كندة التي هي القبيلة. وإنما هو جعفي القبيلة ومضوا في ذكر سلسلة نسبه إلى ربطه بزيد بن كهلان.. وكان أبوه سقاءً وقد رحل به إلى الشام عام ٣٢١هـ وبقي بها متردداً بين أمرائها. وقد سجن عام ٣٢٤هـ ثم رحل إلى أنطاكية سنة ٣٣٦هـ ثم إلى مصر سنة ٣٤٦هـ حيث كان كافور الإخشيدي والياً عليها. ولما لم يطب له المقام بسبب عدم تحقق مطامحه غادرها إلى الكوفة عام ٣٥١هـ ثم إلى الأهواز في بلاد فارس عام ٣٥٢هـ ومن فارس والأهواز عاد إلى بغداد وهناك قتل عام ٣٥٤هـ.

وإذا كان هذا هو مختصر ما ترجم له من الناحية الاجتماعية. وهو أقصى ما توصل إليه بعض دارسي حياته.. وقد أوردها بشيء من الإسهاب محقق ديوانه الأستاذ عبد الرحمٰن البرقوقي فإن مرد ذلك يرجع إلى طغيان مواقف المتنبي مع ولاة وأمراء زمانه واعتزازه بنفسه بشيء من التعالي أحياناً.. وهي مواقف كان ينشد بها علو القدر والتميز بممارسة السلطة لكنها بائت بالفشل. ولم يتحقق له بها إلّا كونه أصبح شاعر بلاط ليس إلّا.

أما أنه قد استمسك فيما تركه من أشعار بالانتماء إلى بلد بذاته. وأشاد بحبه وأظهر في أشعاره توجده على فراقه ليكون له حظوة لدى ولاته وخاصة سكانه وعامتهم فشيء ربما كان شبه معدوم في أشعاره..



غير أن العكس هو الصحيح. كيف لا وهو قد أكثر من الإشارة إلى أن البلد الذي يجد لشعره رواجاً فيه هو بلده وأن أهله هم أهله... ومما جاء في قصائده البكائية نستدل على ذكل. وذلك بقوله من قصيدة أمتدح بها كافوراً. ومطلعها:

أغالب فيك الشوق والشوق غالب
وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

ومنها قوله:

إذا تــرك الإنـســان أهــلاً وراءه
ويــمــم كــافــوراً فــمــا يــتــغــرب

ومنها قوله:

أحـن إلـى أهـلـي وأهـوى لـقـاءهـم
وأيـن مـن الـمـشـتـاق عـنـقـاء مـغـرب

فإن لـم يكـن إلا أبو المسك أوهـم
فـإنـك أحـلـى فـي فـؤادي وأعـذب

ويقول من قصيدة قيل أنه هي آخر ما أمتدح به كافوراً وقد أنشده إياها في شوال ٣٤٩هـ.

إني لـنـجـم تـهـتـدي بي صُحْبتي
إذا حـال مـن دون الـنـجـوم سـحـاب

غـنـيّ عـن الأوطـان لا يـسـتـفـزنـي
إلـى بـلـد سـافـرت عـنـه إيـاب

ومنها قوله:

ومـا كـنـت لـولا أنـت إلا مـهـاجـراً
لـه كـل يـوم بـلـدة وصـحـاب

ولـكـنـك الـدنـيـا إلـى حـبـيـبـة
فـمـا عـنـك لـي إلا إلـيـك ذهـاب

وكما أسلفت فهذه شواهد على اعترافه بعدم انتمائه إلى وطن معين. ومما كان على قافية ـ الباء ـ بالذات من شعره.. أما ما هو على القوافي الأخرى فكثير جداً. والذي يرجع لديوانه يتحقق له ذلك. أو هو يحقق ذلك.

○○○○○

من الوعظ البليغ

والموعظة الحسنة التي تأتي من لسان صادق مع قلبه في سره وعلنه. تبقى خالدة كالعين الجارية التي يغترف منها ويرتوي من معينها كل مار بها. وهي في نفس الوقت ـ وأعني بذلك الموعظة ـ نبراس يستضيء به كل مرشد. وآمر بالمعروف. وناه عن المنكر.

ومن صور الوعظ البليغة ما جاء في «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير من أن الحافظ أبو بكر الخطيب قال: أخبرنا القاضي أبو محمد الحسن بن الحسن بن محمد بن زامين الأسترابادي قال: أنبأنا عبد الله بن محمد الحميدي الشيرازي. أنبأنا القاضي بن خرزاد الأهوازي. حدثني علي بن محمد القصوى. حدثني أحمد بن محمد الحلبي. سمعت سريا السقطي يقول: سمعت بشر بن الحارث الحافي يقول: قال إبراهيم بن الأدهم: وقفتُ على راهب فأشرف علي فقلت له عظني فأنشأ يقول:

خـذ عـن الـنـاس جـانـبـاً
كـن بـعـدوك راهـبـا

إن دهـراً أظـلـنـي
قـد أرانـي الـعـجـائـبـا

قـلّـب الـنـاس كـيـف شـئـ
ـتَ تـجـدهـم عـقـاربـا

قال بشر هذه موعظة الراهب لك فعظني أنت فأنشأ يقول:

تـوحش من الأخـان لا تـبغ مؤنسـاً
ولا تـتـخـذ خـلا ولا تـبـغ صـاحـبـا

وكن سامري الفعل من نسل آدم
وكن أوحديا ما قدرت مجانبا

فقد فسد الأخوان والحب والأخا
فلست ترى إلّا مذوقاً وكذباً

فقلتُ: ولولا أن يقال من هدةٌ
وتنكر حالاتي لقد صرت راهبا

ومن أقوال أولئك الوعاظ قول بشر الحافي: عليك بالخمول ولزوم بيتك. وقول الحسن الاسترابادي: لولا الليل وملاقات الأخوان ما بالبيت متى مت. وقوله واعظاً: اتق الله وثق به ولا تتهمه فإن اختياره لك خير من اختيارك لنفسك. وأنشد:

اتخذ اللّه صاحبا
ودع الناس جانبا

وقول أحمد بن محمد الحلبي: أحب الأعمال إلى الله ما صعد إليه من قلب زاهد في الدنيا. فازهد في الدنيا يحبك الله.. وقول علي بن محمد القصوى: احفظ وقتك واسخ بنفسك لله عزَّ وجلَّ. وانزع قيمة الأشياء من قلبك يصفو لك بذلك سرك ويذكو به ذكرك. وقول أبي بكر الخطيب: احذر نفسك التي هي أعدى أعدائك أن تتابعها على هواها. فذاك أعضل دائك. واستشرف الخوف من الله تعالى بخلافها. وكرر على قلبك ذكر نعوتها وأوصافها. فإنها الأمارة بالسوء والفحشاء. والموردة من أطاعها موارد العطب والبلاء. وأعمد في جميع أمورك إلى تحري الصدق. ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله. وقد ضمن الله لمن خالف هواه أن يجعل جنة الخلد قراره ومأواه.

○○○○○

في اليمن حروب أهلية ومحن!!!

من قبل أربع سنوات تقريباً من عامنا هذا ١٩٩٤م أي من ٢٢ مايو عام ١٩٩٠م اتحد جنوب اليمن مع شماله. وأصبحت عدن كبرى مدن اليمن. وصنعاء أصبحت العاصمة. وجرت انتخبات رئاسية وتشكلت حكومة اتحادية كان أول رئيس لها علي عبد الله صالح من الشمال من قبيلة حاشد. وصار نائبة علي سالم البيض من الجنوب.. لكن الأمر لم يكن مبنياً على ثقة بين الجنوب والشمال. ولا على صدق نية بين أعضاء الحكومة الشماليين والجنوبيين بقدر ما هو مبني عل أهداف شخصية ذات مطامع مادية وسلطوية. فكانت هناك مخاوف من الجنوبيين بأن تستغل موارد الدولة التي معظمها من الجنوب حيث حقوق البترول واستراتيجية الموقع. وتنفق جميعها في إصلاحات شمالية ويحرم منها الجنوب وانطوت النية على تلك المخاوف بل كانت تنضح بها بعض التصريحات حيث تحقق اتجاه علي عبد الله صالح إلى ذلك بحكم أنه شمالي فانكشفت النوايا. وبدأ سوء التفاهم يأخذ اتجاهاً ذاتياً بين علي عبد الله صالح وعلي سالم البيض حتى وصل إلى حد الاتهامات بالفساد الإداري والتسلط. والاتجاه الفكري المخالف لرغبة الشعب اليمني وبهذا دخلت الأزمة مساراً أدى إلى اندلاع حرب أهلية كان أول اندلاعها في ـ عمران ـ في يوم الأربعاء ١٦ ذي القعدة عام ١٤١٤هـ الموافق ٢٧ أبريل نيسان عام ١٩٩٤م. وبمعنى أبسط وأوضح فإن النزاع الذي أفضى إلى التطاحن ما هو مطعم بنسبة سلطوية وحزبية تطعيماً بلغ رقماً قياسياً في تقديم الذات والاختصاص على المصلحة العامة.

وإزاء هذا الاقتتال ارتفعت أصوات المشفقين على الأمة اليمنية والذين يحزنهم رؤية اليمن مدمراً بأيدي اليمنيين من ملوك وزعماء ورؤساء الدول العربية والإسلامية. وكان على رأسهم خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود الذي كرر نداءه وطالب بإيقاف الحرب وتحكيم العقل فما شجر بينهم. ونبذ الخلاف الذي من شأنه تمزيق وحدة الصف اليمني.

وقد ساهم أصحاب الأقلام. والشعراء في توجيه مثل ذلك النداء. ومن الشعراء الذين وجهوا نداءاتهم الشاعر صالح بن حمد المالك الذي وجه رسالة شعرية منها قوله:

أي خطب مدمر فتاك
حلّ في أمتي وأي هلاك

هو له روع العروبة طراً
لا رعى اللّه من بذا قد دهاك

يا لها فتنة تجلت عبوساً
وبها حظك المريض رماك

فتنة عظمت بلاء فأودت
بمنى «صنعدن» وأردت مناك[1]

إنها خطة أجاد الأعادي
رسم أهدافها ونصب الشباك

رسموها بدقة ودهاء
خططاً للحروب للانتهاك

---

(١) يقصد الشاعر بذلك صنعاء. وعدن.

فقنعتم بها بدون ترو
وجرى بينكم شديد العراك

فسفكتم دماء طفل وشيخ
تلك واللّه فعلة السفاك

○ ○ ○ ○ ○

ما هي مسببات الاقتتال...
بين الجنوب في اليمن والشمال؟

والإجابة على السؤال المتمثل في عنوان هذا الموضوع يأتي على النحو التالي: بالإضافة إلى ما تطرقت إليه في موضوع تقدم تحت عنوان «في اليمن حرب أهلية ومحن» أقول مجيباً: كانت هناك خلافات قائمة بين علي عبد الله صالح رئيس الجمهورية اليمنية ونائبه علي سالم البيض حول تنفيذ «وثيقة العهد والاتفاق» الموقعة بينهما بالأحرف الأولى في عمان في الأردن في ٢٠/٢/١٩٩٤م. وهي وثيقة تدل دلالة واضحة على أنها ما اتخذت إلّا لمحاولة حسم نزاعات سياسية تشمل توزيع المناصب وكيفية الإدارة واستبدال المكايدات الشخصية التي تثيرها القبيلة والجماهير الحزبية بحسن النوايا كي تبقى وحدة اليمن التي قامت منذ أربع سنوات أي في ٢٢ مايو عام ١٩٩٠م. لكن الوضع لم يخضع لبنود تلك الوثيقة فبرز سؤال يقول: من يتخذ القرار في اليمن بصفة رسمية شاملة؟ والإجابة عليه دون تردد. هو على عبد الله صالح. كما قالت ذلك مجلة «الشراع» في عددها ٦٢٨ الاثنين ١٦ أيار مايو ١٩٩٤م وبما نصه: نجح على عبد الله صالح في تغليف قراراته بالأغطية الشرعية من خلال المؤسسات التالية:

١ ـ مجلس النواب الذي يرأسه الشيخ عبد الله بن حسين الأحمر ويتمتع فيه الأحمر وصالح بأغلبية الثلثين تقريباً.

٢ ـ مجلس الرئاسة الذي يضم ثلاثة من خمسة لمصلحة الأحمر ـ صالح بغياب رجلي الحزب الاشتراكي ـ البيض وسالم صالح ـ.



٣ ـ المؤتمر الشعبي العالم أي حزب الرئيس وهو حزب الأغلبية في المجلس النيابي.

٤ ـ كون الرئيس هو القائد الأعلى للقوات المسلحة اليمنية.

٥ ـ كون وزارتي الداخلية والخارجية وقيادة رئاسة الأركان تحت سيطرة المؤتمر الشعبي.

٦ ـ المالية والبنك المركزي اليمني تحت سيطرة المؤتمر الشعبي...

وهذه المقدمات الشرعية والدستورية جعلت من علي صالح مسؤولاً يمارس دوره.. فعزل من خلال ذلك للدور نائب الرئيس. واستفرد بمجلس الرئاسة. وعزل كل المسؤولين القياديين التابعين للحزب الاشتراكي من مؤسسات المجلس النيابي ومجلس الوزراء وبقية المؤسسات وأعلن حالة الطوارئ...

ومن هذا المنطلق جاء رد فعل الحزب الاشتراكي المتمركز في عدن. وتبودلت الاتهامات ونشب الاقتتال بين الجنوب والشمال في ٢٧ إبريل ١٩٩٤م وتألم العالم العربي لذلك وكان خادم الحرمين الشريفيين أشد الزعماء تألماً.. وانطلقت النداءات تطالب بوقف الحرب.. وقد كان للشعر نصيب من تلك النداءات حيث يقول الشاعر صالح بن حمد المالك من قصيدة طويلة أملتها عليه الحالة التي آل إليها جنوب اليمن وشماله:

ارفضي الحرب قاتل اللّه من ذا
أشعل الحرب في جميل رباك

وارفعي راية الإسلام ونادي
إن روحي وما ملكت فداك

إيه صنعاء لا تقري قتالاً
وأسقطي من إلى القتال دعاك



واجـعـلـي عـدن الـشـقـيـقـة ردءاً

تـدفـع الـشـر عـن عـزيـز حـمـاك

ازرعـا الـحـب والإخـاء وكـونـا

رمـز عـز ووحـدة لا انـفـكـاك

واسـمـوا نـحـو مـا يـحـقـق مـجـداً

ويـنـجـي الـبـلاد مـن ذا الـهـلاك

أرى سـعـيـا لـسـلام بـارك ربـي

يـا بـلادي يـمـن إلـيـه هـداك

ورعـى الـمـصـلـحـيـن مـن قـومـي

أنـجـمـاً يـهـتـدى بـهـا ورعـاك

○○○○○

أحدث ما قيل في الوجد على نجد!!!

وتكاد تكون نجد عند بعض الشعراء مفتاحاً لقصائدهم المطولة. كما كانت عادة الشعراء في استهلال قصائدهم بذكر الأطلال. أو شيء من الغزل الذي منه يخلصون إلى ذكر الهدف الذي من أجله أنشئت القصيدة.

والتوجد على العيش في نجد في هذا الموضوع يدخل ضمن سلسلة التوجدات التي انتضمت في سلك شعري ذي قافية داليّة أشهرها قصيدة الشاعر بن الدمينة واسمه عبد الله بن عبيد الله بن عمر بن مالك. التي من ضمنها هذا البيت:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادني مسراك وجداً على وجد

وهي قصيدة أخذت معارضاتها تتوالى منذ عهد ابن الدمينة إلى عصرنا هذا. توالياً يتجلى بوضوح في ساحة الأدب.

والتساؤل عن عشق بعض الشعراء المعارضة قصيدة ابن الدمينة. تأتي الإجابة عليه مكونة من شقين:

الأول منها: أن شعراء الجزيرة العربية يعشقون التغني بنجد لصفاء جوها وطيب نسيمها. وتلألؤ نجوم ليلها ورقة هوائها. وعذوبة مائها. فينظرون أثناء ذلك إلى قصيدة ابن الدمينة فتحصل منهم المعارضة. بل ربما عارضها أو عارض معارضاتها من ليس من شعراء الجزيرة العربية. ولكن جمال الشعر الذي تمليه طبيعة نجد كان أخاذاً يوحي إلى القريحة بإيجاد ضرب من مسايرته..

أما الشق الثاني.. فإن أسلوب قصيدة ابن الدمينة كان جذاباً للغاية. بدليل أن معظم أبياتها قد راق أذواق المغنين ووقع الاختيار



على التغني به فحصل من المغنين ما يشبه المباراة في تلحين أبياتها.. فجاءوا بألحان متناغمة ومنسجمة انسجاماً ممتزجاً مع عذوبة ألفاظها وترابط كلماته. وجودة صناعة أبياتها.

ولعل أحدث قصيدة قرأتها في التوجد على نجد هي تلك القصيدة التي قالها الشاعر أحمد بن محمد آل خليفة ونشرتها مجلة اليمامة في عددها ١٢٧٤ الأربعاء ١٣ ربيع الثاني عام ١٤١٤هـ. ومطلعها:

يهيم فؤادي للأحبة في نجد
إذا ما الصبا هبت بطيب من البعد

ومنها قوله:

أتيت من البحرين يدفعني الهوى
فأدنيت ما يطوي السراب بلا جهد

أتيت لنجد والحديد مطيتي
تقرب للأبصار ما لاح من بعد

ومنها قوله:

لياليك يا نجد يطول بها الهوى
إلى الفجر لا يشكو المحب من السهد

وفي نجد تسلو لا ترى الوقت مسرعاً
وفي غيرها حصى الدقائق بالعد

ومنها قوله:

وإن كنت أنسى كل شيء فما أنا
وحقك ناسٍ قهوة الفجر في نجد

تجيء (فناجين) من البن عذبة
لها أرج والطعم أشهى من الشهد

والقصيدة طويلة فهي تبلغ ٣٢ بيتاً.

الدعوة للإمام والقاضي هي دعوة لعموم الناس!!

ونحن لا ننسى القول المأثور: صلاح الرعية من صلاح الراعي ولا قول الفضيل: لو أن لي دعوة مستجابة لجعلتها في الإمام، حينما نقول إن العلماء والأئمة ما هم إلّا رعاة الأمة. وإنه بصلاحهم يستقيم كل أمر. وبسلامة نواياهم وصدق نصحهم ترتفع مكانتهم. ويبنون عروشاً في قلوب الناس. ويشرب الناس حبهم. ولا يُعْصَى لهم أمر. وإنما تعد طاعتهم واحترام رأيهم من المفروضات التي تطمئن إليها النفوس.. قال تعالى في سورة النساء آية ٥٩ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾.

وقال عليه الصلاة والسلام: «صنفان من أمتي إذا صلحا صلح الناس.. الأمراء والفقهاء.. وروى أبو نعيم في الحلية أن النبي ﷺ قال: «صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت الأمة.. وإذا فسدا فسدت الأمة، السلطان والعلماء».

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: اعلموا أنه لا يزال الناس مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهداتهم.

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان يعني في الظلم فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم».

وفيما يخص العلماء قال قتادة: العلماء كالملح إذا فسد الشيء صلح بالملح وإذا فسد الملح لم يصلح بشيء.



قال صاحب كتاب «جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله» الإمام المحدث حافظ المغرب أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري المتوفى سنة ٤٩٣هـ أنشدني أحمد بن عمر بن عبد الله نفسه في قصيدة له.

نسل اللّـه صلاحا
للولاة الرؤساء

فصلاح الدين والد
نيا صلاح الأمراء

فيهم يلتئم الشمـ
ـل على بعد الثناء

وبهم قامت حدود اللّـ
ـه في أهل العداء

وهم المغنون عنا
في مواطين العناء

وذهاب العلم عنا
في ذهاب العلماء

فهم أركان دين اللّـ
ـه في الأرض الفضاء

فجزاهم ربهم عنا
بمحمود الجزاء

○○○○○

ما هي.. التاكيون؟!!

والحقائق العلمية التي جدّ العلماء في دراستها نظرياً وتطبيقياً حتى أثبتوها إثباتاً مبرهناً قطع الشكوك التي عمرها التقاول بين العلماء النظريين منهم وأصحاب التجارب المحدودة في بداية الأمر.

ولعل علم الفلك هو العلم الذي أخذ نصيباً وافراً من الجدل القياسي فكان له حظ كبير من البحث العلمي الذي قطع الأخذ والرد والتصديق والتكذيب حيث حقق العلماء دوران الأرض. وأبعاد الكواكب بعضها عن البعض الآخر. وتحديد مدى قوة جاذبية كل منها. وأحجامها. ووصف طبيعتها وجغرافيتها. وتأثير بعضها على البعض الآخر. مما حدا بعلماء تكنلوجيا الصناعة إلى اختراع ما يعرف اليوم بالأقمار الصناعية. والمركبات الفضائية التي أخذت تخترق جاذبيات الكواكب وتجوب أقطارها. وتحط فوق ظهر بعضها بآلات التصوير التلفزيوني الملون والفوتوغرافي الذي يحدد أنواع تضاريسه.

والذي أود التوقف عنده في هذه العجالة هو موضوع سرعة الضوء الذي دخل في مجال جدلي بين بعض أهل الفكر. لا من حيث واقعيته. ولكن من حيث الافتراض رياضياً وليس علمياً.. وجود جسيمات تدعى «تاكيون» وأن هذه الجسيمات تخترق المألوف كما يقولون. وتجتاز سرعة الضوء التي تبلغ «٣٠٠,٠٠٠» كيلومتر في الثانية.. والذي يرد هذا الافتراض. ويصر على أن ما قيست به سرعة الضوء لا يمكن أن تزيد عن حدها بقياس تأكيوني أو غيره. بل هي قانون طبيعي تحقق للفكر الإنساني في القرن العشرين.. وهي أيضاً حد



أقصى لسرعة الضوء.. وهو الأستاذ الفيزيائي المتفرغ بجامعة عين شمس الدكتور منصور محمد حسب النبي الذي قال إن ما تخيله بعضهم من احتمال وجود «تاكيون» بعالم الغيب لا عالم الشهادة. قد ألهمه هذا القول المنظوم:

وفـــتـــاة جـــامـــحـــة
فـــي فـــضـــاء جـــانـــحـــه

بـــجـــســـيـــمـــات ل «تـــأْكـــيُـــونْ»
طـــي كـــون ســـابـــحـــه

تـــســـبـــق الـــضـــوء خـــيـــالا
غـــادرتـــنـــا ســـارحـــه

تـــركـــتـــنـــا الـــيـــوم كـــيـــمـــا
نـــراهـــا الـــبـــارحـــه

لـــيـــس فـــي رؤيـــا مـــداهـــا
لَا وَلَا فـــي ســـانـــحـــه

لا بـــمـــقـــيـــاس صـــحـــيـــح
أو بـــدعـــوى جـــامـــحـــه

وإذا مـــتـــنـــا نـــراهـــا
فـــي غـــدو.. رائـــحـــه

حـــدة الأبـــصـــار فـــيـــنـــا
ســـوف تـــغـــدو راجـــحـــه

○○○○○

إشعاعات إيمانية وإنسانية!!

ونحن حينما نتتبع سير الأتقياء والمصلحين. وعزائم الأمراء الراشدين وأريحية الأغنياء الصالحين نجد أكثرها معطراً بأفعال الخير ومضاءاً بإشعاعات إيمانية وإنسانية سطرها التاريخ على صفحاته الخالدة نثراً وشعراً بأحرف مذهبة.

يروي أن السيد يوسف بدر الدين المغربي نزح إلى دمشق وتوطنها وسكن دار الحديث النووية. واتفق أن ادعى ملكيتها رجل رومي. وجاء بحجج تثبت ملكيته ووضع يده عليها. وجعل من قسمها الغربي خماره يرتادها الفساق. فثار الشيخ يوسف. ولجأ إلى دار الأوقاف فما صنعت شيئاً. ثم ما زال يتابع جهاده مع الجهات الحكومية والمسؤولين صعداً حتى حصل على «فرمان سلطاني» يوجب إعادتها للوقف ـ ولكن الحكام في دمشق آنذاك. قد لعبت بهم الرشوة ـ أرقدوا الفرقان وعطلوه. فلجأ إذ ذاك إلى الأمير عبد القادر الجزائري المولود عام ١٢٢٢هـ والمتوفى سنة ١٣٢٤هـ فاشترى الأمير عبد القادر الدار ووقفها من جديد وسلمها للشيخ. وكانت لا تمر مناسبة إلّا اهتبلها هذا الشيخ الوقور وقدم للأمير قصيدة يلمح بها شاكراً للأمير صنيعه.. وفي أحد الأعياد أنشده قصيدة مطلعها:

بك المسرة قد نالت أمانيها
يا نعمة ما لها شيء يدانيها

إن كان عيد لها تهنا بموسمه
فالعيد كونك يا أقصى أمانيها

فأجابه الأمير عبد القادر الجزائري بقصيدة منها قوله:

يا يوسف رد لي من قربكم نظراً
كردّه بقميص أنت مهديها

فأنت بين أخلاء لهم أدب
تبقى وإن مات قاصيها ودانيها

ولتعطنا من زكاة العلم واجبة
أنت المشيّد دار العلم بانيها

أبقاك رب العلا في نشر حكمتها
رغماً لأنف معاديها وشانيها

وقد كان للشيخ محمد الشاذلي الفسنطيني أحد علماء المغرب تعليقاً شعرياً على قصيدة الأمير عبد القادر. منه قوله:

تطيب نفسي يا أقصى أمانيها
بحكمة منك يا مولاي يشفيها

من حبها ما عن الخيرات أقعدها
من المعاصي التي للنار تهديها

○○○○○

فليتق الله المنطيق!!

لقد وهب الله بعض المتكلمين لساناً فصيحاً تلتهب فيه العبارات. وتتلظى فيه الكلمات.. فكأنا هو قالب قد صنع لسبك المعادن واستخلاص الذهب الإبريز منها.. ـ كما آتاه الله حكمة ومهارة في عرض القول على الأسماع. فهو بهذه الموهبة العظيمة يؤثر على سامعه إن كان يحدثه. أو على قارئه إن كان قد كتب به إليه.. فهو يختار من الكلمات ما هو مؤثر في النفس.. ومن الألفاظ ما يشبه السحر الذي يبهر به عقل المتلقي. بل يوجد لديه القناعة بواقع ما يتحدث عنه.

فمثل هذا الصانع للكلام ـ أو من يسمى بالمنطيق ـ والذي يعرف هو مدى ما يمتلكه لسانه من جاذبية منطقية يستجيب لها الناس ـ أقول مثل هذا ـ يجب عليه أن يتقِ الله في نفسه وفيما يقول. وأن لا يصرف الناس بجودة منطقه. وحسن كلامه. وتفوق مذهبه في التعبير. وسحر بيانه عمّا هم عليه من عقيدة سليمة وأخلاق فاضلة. وتقاليد قويمة. وعادات شريفة وخصال حميدة.. وأن لا يلبس الحق بالباطل فيوهم الناس بفلسفة منطقه المرتبط بقوة تعبيره.

وعلى الناس أن يحذروا من الرجل المنطيق حذرهم من السم الذي يمزج من باب المخادعة والغش بالدسم.

ولهذا الأمر الخطير حصلت بعض الإشارات والتنبيهات من أصحاب الأقلام والشعراء. فمن الشعراء مثلاً الشاعر محمد عبد الرحمٰن صان الدين الذي صنع قصيدة بهذا الخصوص وجعل عنوانها «صناع الكلام».. منها قوله:



وكم ذهب الكلام برشد واعٍ
وكم أودى به في الناس غرُّ

وكم يغدو به حرًّا رقيق
ويصبح في قيود الرق حُرُّ

وكم سكرت أحاسيس العذارى
وبعض القول أنغام وخمر

ألا فليتق الجبار مرءٌ
لعذب حديثه البراق سحر

فتنقاب الحقائق في عقول
ويهتز الرصين المستقر

فإن القول يهمي من شفاه
كما يهمي من الوطفاء قطر

وإن يك بعضه حِكَما وريا
فإن الجلّ ملهاة وهُجر

فيكتبه رقيب أو عتيد
كما نطق اللسان وباح صدر

والقصيدة طويلة. وقد نشرتها مجلة «الأهرام» في ذي الحجة عام ١٤١٤هـ.

○○○○○

هل الحب داء؟!

ما من حديث يدور حول الحب ومؤثراته. وما له من سلبيات وإيجابيات على النفس إلّا وتسبق إلى ألسن المتحدثين عن ذلك عبارة مختصرة نصها «الحب داء» ومن هنا جدّ المحبون في التماس الدواء، فما وجدوا إلا علاجاً واحداً قد اتفق على وصفه أهل التجارب.. وهو التداني. ودوام اللقاء.. أمّا ما عدا ذلك فهو مما يعد في حساب المسكنات التي لا تستأصل داءً ولا تحقق شفاءً.

ولقد قرأت في ديوان البطل المغوار الأمير عبد القادر الجزائري المولود عام ١٢٢٢هـ والمتوفى سنة ١٣٢٤هـ أنه جرى حديث الحب في مجلسه وهو بفرنسا واختلف فيه ـ هل هو ـ والمعني بذلك الحب ـ طبيعة أم مرض؟ وإذا كان مرضاً فهل له شفاء؟... فأثار هذا التساؤل شاعرية الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني أحد علماء المغرب المشهورين. ومن كان في مقدمة من زاروا الأمير عبد القادر في سجنه في فرنسا.. فقال في ذلك أبياتاً منها قوله:

أيا أهل فن الطب بالله خبروا
أيوجد للحب النحيل دواء

نهكت سقاماً لم أجد لي شافيا
وقلبي من غير الخليل هواء

كلفت بها وهي الفريدة والتي
تجمع فيها الحسن وهي ضياء

فعلق الأمير عبد القادر الجزائري على أبيات الشيخ محمد الشاذلي

بأبيات توفرت له فيها الإجابة على ذلك التساؤل.. بل أكد أن إصابة الحب بالداء تأتي عن طريق الهجر. والتنائي. والجفوة. وعدم الوصل منها قوله:

سألت رجال الطب.. أخبر كلهم
وهم أهل تجريب وأهل ذكاء

بأن سقيم الحب هيهات ما له
دواء إذا ما الحب أصبح نائي

عسى ولعل اللّه أن يبرد الأسى
فإن رجاء الوصل.. بعض دواء

ولو لم يكن للعاشقين تقرب
لوقت وصال ما بقوا لمساء

وإن دام هجر الحب أو زاد بينه
فذلك داء لم يزل بشفاء

وجميع الأبيات مدونة في «ديوان الأمير عبد القادر الجزائري» شرح وتحقيق الدكتور ممدوح حقي.

○ ○ ○ ○ ○

البوح بالتحسر بـ - لهفي -!!

وكثيراً ما يحدث البوح بالتحسر والتفجع بسبب حدوث أمر مخالف للرغبة أو بسبب فوات شيء كان لبقائه أو وجوده راحة للنفس ومسرة لها أو على شيء بعيد المنال - وقوة التعبير عن ذلك تؤخذ في بعض الأحيان مقياساً لمدى أهمية ما حصل التحسر والتألم من فقده إن لم يكن هناك وصف صريح وترجمة تكشف طبيعة ما سبب ذلك التحسر.

وأساليب التحسر، ومفردات كلماته تخضع في مجال الشعر خاصة لمقدرة الشاعر على فنية بناء القصيدة التي يخضعها لذلك.

ومن الشعراء من يلتزم لفظة يراها ملفتة للنظر من ناحية ومثيرة للقريحة الشعرية في نفسه من ناحية أخرى. فتأتي قصيدته مزدحمة بالمعاني ومترجمة لكل ما خالج نفسه من تأسف وتحسر على ما حدث أو فات، مما كان سبب في تألمه.

ومن الألفاظ التي يعبر بها عن ذلك قولهم - لهفي - وهذه اللفظة يقترن بها عادة حرف الجر - على - الذي يُلْزِم المعبر بعده بذكر ما كان متأسفاً على فقده أو متألماً لحدوثه مثلاً، أو طمعاً في الحصول على متعذر.

ومن الشعراء الذين اصطحبوا لفظة - لهفي - الشاعر أحمد القدومي حيث قال من جملة أبيات قصيدة له استهلها بقوله:

لدم الشهيد على الثرى إمضاء
يُزْجى السحات تخطُه الأنواء



ولظى الحجارة في انتفاضة مارد
قدر يصول رجاله وقضاء

لهفي على الأيام توقدُ مهجتي
وطناً يسطر مجده الشهداء

لهفي على سنة أعانق عبرها
نصراً يخلد ذكره الشعراء

لهفي على يوم أعيش وفي دمي
لون الإباء وفي العيون حياء

لهفي على وطن أروّي أرضه
بدمي لتزهر صخرة صماء

لهفي على حجر ألوذ بنوره
فحجارة الوطن الحبيب سناء

لهفي على الأطيار عذّبها النوى
وأطل من خلف الوراء وراء

ومن خلال تلك الأبيات ندرك أن الشاعر قد تلهف على وطنه الذي أصبح أسيراً في قبضة عدوه.

○ ○ ○ ○ ○

قميحة في سوق العجائب!

وقميحة هو الشاعر المعاصر جابر قميحة، خطر له في يوم من أيام شهر ذي الحجة عام ١٤١٤هـ أن يتجول فيما أسماه بسوق العجائب.

والحقيقة أنني عندما قرأت عنوان قصيدته «في سوق العجائب العربية» تبادر إلى ذهني أنه قد أثار إعجابه سلعة أو سلعاً معروضة في الأسواق العربية عرضاً مبنياً على الافتخار بأنها مصنوعة عربية.. وأنه أراد أن يترجم إعجابه في أبيات من الشعر.. لكن واقع القصيدة كان بعيداً عن معنى صناعة التجارة وأساليب التسويق التجاري الذي يقوم على الدعاية والإعلان حيث وجدته كما وجده غيري ممن قرأ العدد ٤٨٤ من جريدة «المسلمون» الصادرة يوم الجمعة ٣/ ١٢/ ١٤١٤هـ قد تجول بخاطرته وفكره في سوق السياسة العربية فرأى فيها من العجائب السلبية ما يدعو إلى التعبير عن عدم الرضا، إذ أن في تلك السوق من المفارقات وعدم تطابق وجهات النظر نحو الهدف العربي المشترك ما ابتعد بالقادة عن خدمة المصلحة العربية العامة، ويقربهم إلى عدو يبحث عن فرصة تمكنه من زرع التفرقة بينهم. ليكون هو سيد الموقف. وإليه يرجعون فيما يشكل بينهم من أمور جانبية.. لا يتواني في تضخيمها تضخيماً يسبب أزمات سياسية وعدوات ترقى إلى المصادامات العسكرية التي يمنى بالخسارة فيها الغالب والمغلوب معاً.

أما التعبير الشعري عن سوق العجائب العربية الذي صاغه قميحة فمنه قوله:

تجولت في السوق الكبيرة آملاً
ألاقي الغوالي من نفيس وأنْفُس

فشاهدت فيها جدولاً متوعداً
سيغرق موجي ما دعوه بأطلس

وشاهدت «غوريلا» تُباهي بحسنها
قطيع ظباء مائسات وكُنّس

وشاهدت من يشري العزيز بدرهم
ومن باع ماء الوجه فيها بأبخس

وأصبحُ للشوك الأثيم معارض
ولم أر فيها من ورود ونرجس

وجاء ـ ضرير ـ القوم يلعن مبصراً
وسخر من سحبانها كل أخرس

ومادرها ـ يزرى بحاتم طيء
وينكر نبت الجود في كل مغرس[١]

وألقوا أمين القوم في قاع مظلم
وصفق أقوام للص مدلس

○○○○○

(١) مادر: شخص يضرب به المثل في البخل.

الحب بين رأيي... شاعر وشاعرة!!

لا أظن أديباً من الأدباء. ولا قارئاً من القراء. يملّ من قراءة الأدب بجميع فنونه وألوانه واتجاهاته..

وإني لأظن الكثير منهم يتعشق قراءة ما يدور حول الحب من جدل. وما يبوح به المحبون من معاناة. وما يدور في خلد العشاق من نزاعات نفسية يستحوذ ما تولده من شعر ونثر على صفحات لا بأس بها من سجل التراث الأدبي.

والحب بمعناه الحقيقي الذي يعدُّ محرّكاً للنفس وغامراً للشعور. ومهيجاً للقريحة. يولد في نفس الشاعر المحب معاني جميلة وأساليب شعرية بديعة يشنف الآذان سماعها إذا كانت منسجمة مع طابع الأدب الرفيع وبعيدة عن الابتذال اللفظي.

وأبو صخر الهذلي الذي اكتوى بنار الفراق بعدما عانق الحب بقلبه وتلذذ بلذيذ طعمه.. صنع أبياتاً هي غاية في وصف تجربته للحب الذي لم يدم له بسبب الفراق الذي مني به. حتى صار من جرائه يحسد كل أليفين يراهما حتى وإن كانا من الوحوش. ذلك بقوله:

أما والذي أبكى وأضحك والذي
أمات وأحيا والذي أمره الأمر

لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى
أليفين منها لا يروعُهُما الذعر



فيا حبها زدني جوى كل ليلة
ويا سلوة الأيام مَوْعِدك الحشر

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها
فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

لكن أم الضحاك المحاربية لم تقف وقفة أبي صخر الهذلي في معاناته من الفراق فهي قد طرقت باب البحث عما يذهب عن نفسها حب من نأوا عنها. حيث سألت أهل التجارب.. فأجابوها إجابة ذات شقين: الأول قولهم لها إن حب من نأى لا يذهبه إلّا حب جديد لمن دنا.. وهذا في نظري... كمن يجعل من الدواء ما يبقى استمرارية الداء. أما الثاني وهو الأوفق لمن يقدر على تنفيذه وهو توصيتهم لها بأن تجعل من اليأس والنأي الطويل على الهجر عاملاً ينتزع الحب الذي لم يوجد له مقابل من نفسها:

سألت المحبين الذين تحملوا
تباريح هذا الحب من سالف الدهر

فقلت لهم: ما يذهب الحب بعدما
تبوأ ما بين الجوانح والصدر

فقالوا: شفاء الحب حُبّ يزيله
لآخر. أو نأي طول على الهجر

أو اليأس حتى تذهل النفس بعدما
رجت طمعاً واليأس عَوْن على الصبر

○○○○○

أمواج بحر الخليج

وما الأمواج المجللة بالزبد والتي تشبه في تهاديها بيض الحمائم المتباهية في سيرها إلّا مفتاح للمشاعر.. وما تراقصها وتدافعها إلّا تهييج للقرائح. ولهذا فإن الشعراء عندما يقفون على شاطئ من شواطئ البحر يطلقون أخيلتهم مع النسيم المشبع برطوبة ماء البحر الندية فتمرح مع أمواجه جيئة وذهاباً... ويتابعون بنظراتهم الزبد الذي تحمله الأمواج وتأتي به من أعالي البحار لتلقي به على رمال الساحل، متابعة تملأ مشاعرهم بما يمكنهم من القول عن صلة الإنسان بالبحر بصفة عامة.

وإذا ما ألقينا نظرة عابرة على أشعار الشعراء وجدنا أن من يتفنن منهم في وصف البحر وجماله ومده وجزره وعوالمه هم أولئك الذين عاشوا على شواطئه وعانقوا سباحتهم فيه أمواجه يمه.

أما ذكرى البحر فإنها تهيج من فرضت عليه ظروف الحياة العملية الابتعاد عنه وتزيده الأحلام والرؤى عشقاً وتشوقاً إلى رؤيته. فيروي ظمأ عشقه بنظم الأشعار في وصفه. والتغني بجمال طبيعته وعالمه الفطري.

وإذا كان لا بد من شاهد من الشعر الوصفي الممزوج بالتعبير عن ذكريات البحر فهذا الشاعر القطري المعاصر مبارك بن سيف آل ثاني قد شارك الشعراء في رسم صورة بحر الخليج العربي بأسلوب يصف عمق الصلة بالبحر. ويترجم من مشاعره تجاه بحر الخليج وذلك بقوله من قصيدة طويلة:

الماء فيك كعسجد يتفجر
والغانيات بعشق درك تسحر

والماء عطر والشطوط زخارف
والقطر في دهاء لجك جوهر

والغيد من حسن الجمان مفاتن
الجيد عقد والذراع مسوّر

وكذلك الشاعر المعاصر الدكتور غازي عبد الرحمٰن القصيبي الذي يعد واحداً من الشعراء الذين وقفوا على بحر الخليج فهزتهم الذكريات فمزجوا وصف البحر بذكرياتهم في أشعار مطربة.. وذلك مثل قوله في قصيدة له. منها:

أتيت أرقب ميعادي مع القمر
يا ساحرَ الموج والشطآن والجزر

هديتي رَعْشَتَا شوق وقافية
حملتها كلما عانيت في سفري

ومنها:

أمر بالشاطئ الغافي فأوقظه
بقبلة وأناديه إلى السمر

ومنها:

خليج ما وشوش المحار في أذني
إلّا سمعتك صوتاً دافئ الخدر

ولا ترنم ملاح بأغنية
إلّا وضجت أغاني الغوص في السحر

إليك أيها السائل عني!!

توقفت عن الكتابة في الصحف في أواخر عام ١٤١٤هـ فكثر السؤال عني. والحقيقة أنني لا أدري لمن أوجه الحديث عبر هذا الموضوع الذي احترت كثيراً في وضع عنوانه... ألمن هاتفني ولامني على التوقف عن الكتابة في ملحق «أدب وثقافة» في جريدتنا المحبوبة «جريدة الجزيرة» والذي يشرف عليه أخونا الكريم الأديب إبراهيم التركي... أم لمن بعثوا إليّ رسائلهم يسألونني عن سبب توقفني عن الكتابة.. أم لمن وجه إليّ الكلام وخاطبني بلغة الأدب عبر الملحق نفسه في عدد مضى وطالبني بالاستمرار في الكتابة بأسلوب فيه من الإطراء الذي لا أملك إلّا أن أقابله بالشكر... والحقيقة أنني ما كنت أظن أن هناك من يقرأ ما أكتبه بهذا الشكل إلا بعد ما تلقيت تلك المهاتفات والرسائل التي أوجدت في نفسي شيئاً من الرضا عما كنت أكتبه.

واستجابة لتلك المطالبات العزيزة على نفسي أعدل عما كنت قلته في هذه الأبيات:

ألـمـلـم أوراقـاً تـبـعـثـر جـمـعـهـا
وأنـكـرهـا جـهـلاً جـهـولٌ مـكـابـر

تـنـقَّـصـهـا ذاك الـذي قـلّ عـلـمـه
وغـيَّـر مـجـراهـا مُـقِـلٌّ وقـاصـر

رأى نـفـسـه فـي قـمـة الـعـلـم واقـفـاً
ومـا هـو إلّا فـي الـصـحـيـفـة عـاثـر

يُخمّن تخميناً ويمضي مجازفا
على حدسٍ قد غلفته المظاهر

* * *

لويت عناني حين أنكرت موضعي
وعدتُ يقاويني الأسى والمخاطر

على لاحب الأيام تمشي ركائبي
وتمضي بزاد يشتهيه المسافر

ليعذرني صحب إذا عدتُ قافلاً
ويعلم علمي صالح ثم ناصر

فلا يطلبوا مني رجوعاً لصفحة
ولا ينكروا صمتا تولاه حاضر

* * *

ولا أريد أن أعلق على تلك الأبيات فهي وكما يبدو من أسلوبها وليدة هواجس أثارتها أحاسيس خشيت أن تجرح كبرياء الأدب إن أنا تماديت مع من لا يعرفني ويجهل أسلوب كتابتي. وما تنطوي عليه من أهداف ترتبط بالحياة الاجتماعية التي تتطلب إمعان النظر فيها إمعاناً يولد أدباً مقروءاً يجد له مكاناً فيما نخلفه من صفحات أدبية تكون فيما بعد تراثاً منسوباً لنا.

OOOOO

حينما يكون الإنسان جَداً

وحينما يكون الإنسان جَداً لأحفاد فإنه يكون بذلك قد بلغ مرحلة متقدمة من العمر، وأن الشيب قد غزاه واستولى بياض الشعر على سواده عنده.

وبعض الناس تكون له مشاعر حينما يولد حفيده.. وهي مشاعر تختلف ترجمتها من شخص إلى آخر.. فمنهم من ينعي بذلك شبابه. ومنهم من تقرُّ به عينه. ويطمئن قلبه إلى عدم انقطاع ذكره بعقم ذريته.

وبعض الشعراء أكثر من يترجم تلك المشاعر في أسلوب شعري يأخذ مكانه من صفحات التراث الأبي، ويصبح أدباً ذا قيمة.

والشاعر ميشال أبو شهلا يعد واحداً من الأجداد الذين ترجموا مشاعرهم بقدوم أحفادهم في عدة قصائد منها القصيدة التي قالها بمناسبة ولادة أولى أحفاده التي سميت رندى، وهي كريمة ابنته وداد زوج السيد إسكندر سمعان.

ولتعدد القصائدة التي قالها في أحفاده وحفيداته، أطلق الشاعر ميشال أبو شهلا على نفسه لقب الجد الطروب.

من تلك القصيدة التي قالها بمناسبة ولادة رندى قوله:

صرت يا صاح من رضى الله جداً
لـقـبٌ أرتـديـه كـالـعـز بُـرْدا

خـلـعـتـهُ ابـنـتـي عـلـيّ فـأولـتْ
وهَـنَ الـروح رونـقـا مـسـتـجـدا

أنا والطفل موجتان على الدهر
نخوض الأجيال جزراً وحدا

سنة اللّه أن نودع حداً
لنلاقي في فسحة العمر حدا

ما أُحَيْلَى حفيدتي تملأ القلب
ابتهاجاً وتملأ البيت سعدا

ومنها قوله:

وأحسّ الوجود ينشر حولي
بيديها ظلا وماء وورداً

قرِّ بي يا حفيدتي لعناق
أتمَلَّى منه هناء ورغدا

طيبي باللقاء أيام عمري
كل يوم يزيدني عنك بعدا

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ نحواً من سبعة عشر بيتاً، وهي موجودة ضمن القصائد التي ضمها ديوان ميشال أبي شهلا «أنفاس العشيات».

○○○○○

ينطمر التفكير بعدم المقدرة على التعبير!!

والتعبير عما يدور بخلد الإنسان ومخيلته. وما تحدثه به نفسه هو العامل الذي يحوله إلى مادة ذات قيمة علمية أو أدبية أو فكرية.: لأنه ما من إنسان أو نفس بشرية سوية إلّا وهي مليئة بالهواجس التي تبحث عن مترجم لها. أو عن ريشة رسام. أو قلم كاتب أو شاعر يسطرها على الورق لتبقى أدباً وفكراً تحوله يد الدهر وحركة الزمان إلى تراث فكري يحكي واقع حقبة زمن من الأزمان.

لكن عدم المقدرة على التعبير عما يختلج في الضمير أو يختزنه القلب. أو يختمر في الذهن هو العامل الوحيد الذي يقف عائقاً أمام الكثير من الناس. إذ ليس كل إنسان يستطيع الكتابة بالأسلوب الأدبي الذي يمتزج إنشاؤه بفنية الكتابة وإبداعات التعبير التي يكتب لها البقاء على صفحات تاريخ الأدب الذي تتوارثه الأجيال ويصبح معيناً يستقى منه. ويُوصى بالمحافظة عليه.

فكم من إنسان قد أوتي حكمة وفهماً. وصفاء ذهن. وعمق تفكير. ورجحان عقل لكن تنقصه المقدرة على التعبير عن تلك المكتسبات والمواهب فتبقى في صدره وتدفن في قبره متى دفن.

والاحتكاك بمثل ذلك الذي لم يمهر في القراءة ولا في صنعة الكتابة وفنون التعبير والإنشاء. أمر مفترى على كل صاحب قلم.. لأن الغفلة عنه أو تناسيه بسبب أميته فيه شيء من إهدار القيم الأدبية وتضييعها.

وحول هذا المفهوم المتعلق بعدم المقدرة على التعبير عما تمتلئ

به النفس من المعاني يقول الشاعر عبد الرحمٰن محمد شكري عياد المولود عام ١٨٨٦م والمتوفى عام ١٩٥٨م من قصيدة له:

كم معان يودّ لو صاغها المر
ء وحلّى بها وجوه البيان

هي ملأ الضمير لم يبلغ اللفـ
ـظ مداها ولم تذلها المباني

كلما رام أن يعبِّر عنها
أنفت أن تنال بالآذان

فهي عذراء لا تحن لناءٍ
وهي عذراء لا تلين لداني

نزلت في النفوس منزل صدق
كنزول النفوس في الأبدان

وتأبت على قانص الحق باللفـ
ـظ ولو كان واسع التبيان

هي جزء من النفوس وهل تبـ
ـدو نفوس لمدرك بالعيان

لن تراها بالرأي حتى تراها
بفؤاد موفق يقظان

○○○○○

اختلاف المشاعر باختلاف الرؤية!!

ويعمد بعض الفلاسفة أحياناً إلى عرض أشياء تختلف فيها الرؤية اختلافاً يغير من المشاعر. ويجلب أنواع الخواطر على الرغم من أن مصادرها ثابتة وغير قابلة للتغيير. لكن عمومية فعلها وشمولية نشاطها يجعل ما يقع عليه فعلها موضع تساؤل فلسفي يجر وراءه إجابات تختلف بحسب اختلاف المواقع التي ترتكز عليها الرؤية فيأتي التعبير عنها موافقاً لما تثيره طبيعة الموقع من مشاعر في نفس المشاهد.

فالشمس أو القمر مثلاً حينما يرسل ضوءه الفضي على الأرض فإن ضوءه شمولياً يعم كل بقعة من الأرض.. فتراه يناغى الزهو والسنابل بضوئه المنير فيعزف نسيم الليل لحناً بديعاً يثير مشاعر الحب في القلب ويمد خيوط الأمل في النفس.. وإذا ما غادرت الحديقة وعرجت على المقبرة رأيت الضوء نفسه قد عانق القبور فيخيل إليك أنه يُسِرُّ إليها بحديثٍ ينم عن انطواء الدنيا والوصول إلى النهاية فينعكس عندك الشعور باختلاف رؤية ضوء القمر في الحديقة وضوءه في المقبرة. وتأخذ الفلسفة مكانها من مخيلتك فتلزمك بالتعبير عن المشهدين وفقاً لرؤيتك. وما.... تغير مشاعرك.. فإن كنت كاتباً أو شاعراً كُتِبَ للتعبير عن مشاعرك البقاء في صفحة التاريخ.

ومن الشعراء الذين حاولوا رسم تلك الصورة في لوحة شعرية ربما يكتب لها البقاء الشاعر عبد الرحمٰن محمد شكري عياد المولود عام ١٨٨٦م والمتوفى سنة ١٩٥٨م وذلك بقوله مخاطباً القمر:

إني رأيت بياض ضوئك موهناً
فوق القبور كعارض يتهلل

ففزعت من ذاك البياض كأنه
لون المشيب على الذوائب يثقل

ولقد رأيتك والقبور كأنها
أشباح ساكنة النواظر مُثَّل

نظر البريء إلى القتيل مجندلا
والروع في أنفاسه يتعجل

ولقد رأيت على الهلال سآمة
سأم يعالج مثله المتأمل

فكأنه الحسناء يطرقها الردى
فتبيتُ تذوي في الفراش وتذبل

طوراً يريك الموت في لحظاته
حتى كأن الحسن داء معضل

ويبيت طوراً في الرياض يعلها
مما يريق على الفضاء وينهل

والقصيدة أطول من ذلك ومدونة في مجموعة أشعار الشاعر تحت عنوان «ضوء القمر على القبور» وقد قدم لها بقوله: «إذا رأى الإنسان ضوء القمر على الزهور. خشع من جلالة ذلك المنظر. ولكنه إذا رأى ضوء القمر على القبور امتلكه الفزع من قساوة ذلك المنظر الذي يحكى له فناء الجمال في الموت وفناء الموت في الجمال».

○○○○○

غلام يعزي أمه في نفسه

من الأمراض ما يكون فيه إشارة إلى دنو الأجل. وإيحاءً إلى أنه هو مرض الموت. ولهذا نجد أن بعض المرضى يستشعر ذلك أو كأنه يراه بأم عينه.. فيملي ما يستطيع إملاءه مما كان مكنوناً في نفسه أو متكتماً عليه طيلة حياته فيحصل منه اعترافات بحقوق للغير أو إقرار بأخطأ يطلب العفو ممن ارتكبها بحقه.

أما الحكماء فإنهم يوصون ذويهم حينما يصابون بمرض الموت. بعدم الجزع عليهم.

قيل: إن الإسكندر قال لأمه وهو على فراش الموت: إذا متُّ فأقيمي وليمة وادعي إليها من لم يصب بحزن على فقد قريب أو حبيب له. فلما مات فعلت ذلك ودعت الناس بذلك الشرط. فما حضر الوليمة أحد. فبذلك عزّى الإسكندر أمه بوفاته قبل موته وخفف عنها أحزانها على فقده حينما علمت أنها ليست أول من أصيب بالحزن.

وهذه الصورة وما يماثلها تقفز إلى أذهان الكتاب والشعراء فيعالجون بها بعض المواقف المؤلمة التي تعترض حياة الكثيرين من الناس.

ولقد كان للشاعر عبد الرحمٰن محمد شكري عياد المولود عام ١٨٨٦م والمتوفى عام ١٩٥٨م مساهمة شعرية في عرض هذه الحالة. حيث أنشأ قصيدة على لسان غلام صغير يخاطب أمه وهو على فراش المرض. ويذكرها بأن الموت والفناء مكتوب على كل مخلوق. حتى لا يصيبها جزع على موته إن هو مات من مرضه الذي لزمه يقول عبد الرحمٰن شكري من تلك القصيدة:



خبريني أمي أإن متُّ ماتت
نزعاتي إليكم وحنيني

والحنان الذي أضمُّ به كـ
ـلّ قريب معانق أو قرين

والضياء الذي ترين بعيني
أمضئٌ سواد تلك النون

عاهديني أن لا تعاني لموتي
حرقات تفيض ماء الجفون

وإذا شئت فاجعليه رشاشاً
ذلك الدمع واحبسي من أنين

لست أرضى لحر وجهك أن يز
ري به من شحوب وجه الحزين

لست أرضى لأضلع حملتني
أن تعاني حمل الأسى المكنون

ولصدرٍ قد كان يحنو على جسـ
ـمي في المهد لوعة من شجون

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ستة عشر بيتاً وموجودة ضمن «أشعار عبد الرحمٰن شكري» وعنوانها: «غلام مريض يكلم أمه».

○○○○○

إذا كانت الطرفة شعراً زادت قيمتها الأدبية!!

وتقييم الطرفة أو النادرة يكمن في حسن سبكها ووضوح معناها. وبساطة أسلوبها. وعدم التكلف في صنعها.

ويزيد من رفع درجة قيمتها الأدبية وطلاوتها. إذا جاءت مصنوعة في قالب شعري مرتكز على الهزل أو السخرية. أو ما إلى ذلك مما يدخل في باب المداعبات التي تحصل بين الشعراء عادة فتولد من الفكاهة الشعرية ما فيه ظرافة ومتعة تعشقه الأنفس المكدودة.. حيث تجد فيه قسطاً من الراحة الذهنية والفكرية.

ومن صور تشاطر الشعراء في صنع ما نسميه بالأدب الضاحك. هذه الصورة:

يروى أن أبا الحسن الكستي. وإبراهيم الحوراني. وهما شاعران من القرن الماضي. قد جلسا إلى مائدة في دار ابن اللبابيدي. فسألهما نظم قصيدة في وصف الطعام.. شريطة أن ينظم أحدهما صدر البيت والآخر عجزه.

فقال الحوراني: **حملت كشكول وجدي في هوى الغيد.**

وقال الكستي: **أبغي به شورباء الوصل في العيد.**

قال الحوراني: **ملاعق العذل للأسماع قد قرعت.**

قال الكستي: **قرع المعاول في صم الجلاميد.**

قال الحوراني: **ففلفلوا رز عهدي في طناجركم.**

قال الكستي: **وأنجزوا سكبه في صحن مقصودي.**

قال الحوراني: **بفارغ الوعد قد مطلتم أملي.**

قال الكستي: **وبرمة الوصل طوقتم بها جيدي.**

قال الحوراني: **منوا عليّ بمعمول اللقا كرما.**

قال الكستي: **أنا المربى على كيس الأجاويد.**

قال الحوراني: **ملفوف عتبي على أعتابكم نشرت.**

قال الكستي: **أوراقه بين مقصور وممدود.**

قال الحوراني: **عندي أزيز المقالي في مطابخكم.**

قال الكستي: **ألذ من نغمات الناي والعود.**

قال الحوراني: **وفي ملوخية التعنيف قد زلقت.**

قال الكستي: **أقدام وجدي إلى بيت اللبابيدي.**

○ ○ ○ ○ ○

من طريف ما يقدم للقضاة في مداعاة الزوجات!!

والذي يتبع طريف الأخبار وظريف النكات والمضحكات من النواد المصبوغة بصبغة الأدب.. يجد في تراثيها وجديدها ما يضحكه ويسليه. بل يروح عن نفسه وقلبه مما يثقله من الكد الذي ينجم غالباً عن الجد في العمل خاصة ذاك الذي حرفته الأدب.. ـ فالقراءة الجادة. والبحث المستمر المتعمق يجهد القلب والفكر إجهاداً يحتاج معه إلى استراحة... ـ وهذه الاستراحة لا تحصل أو لا يتوفر معظمها ولذيذ ساعاتها إلا بالنظر في كتب النوادر والطرائف التي اعتنى بتأليف الكثير منها شيوخ الأدب وكبار المفكرين الذين لهم خبرة واسعة بمدى تأثيرها على النفوس المكدودة.

ومن نماذج ما ألف في الأدب الضاحك هذه الطرف التي تتلخص في أنه اختلف رجل وزوجته فتقاضيا إلى المحكمة. وهناك تقدم الرجل إلى القاضي بسرد وقائع قصته مع زوجته في أسلوب شعري. منه قوله:

يا سيدي القاضي استمع
حكايتي مع زوجتي

عاتبتها عند المسا
والعتب للأحبة

فاندفعت تشتمني
بحدة في اللهجة



ومنه قوله:

وهجمت وغرزت
أظفار في رقبتي

هربت منها خائفاً
من غرفة لغرفة

ومنه قوله:

وعندما ضاق بي
الأمر وزادت حيرتي

فررت إذ ذاك إلى
بيت أبي في البلدة

وهكذا وجدت أن
الخير في العزوبة

وسيان إن كانت هذه قصة حقيقية أو خيالية فهي في مجملها ومن حيث صيغة النظم الشعري تدخل في دائرة الفكاهة بشكلها العام وبطريقة عرضها في المحكمة. أمام القاضي.

أما رأي الشاعر في أن الخير في العزوبة فهذا ما لا يتفق عليه. بل إن العزوبة لا تمت بأي صلة إلى الخير. وإنما إلى البؤس والشر وضيق العيش. ورذالة الحياة كلها في العزوبة.

○ ○ ○ ○ ○

في «غرابيل» الرياض!!

في جريدة «الرياض» التي تصدر من الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية.. زاوية لها عنوان ثابت هو «غرابيل» يتبادل الكتابة فيها عدد من الكتاب.. ومن بينهم الكاتب والشاعر ـ محمد بن سعد المشعان الذي يجدُّ حينا. ويسخر حيناً آخر.. فتراه يصوغ السخرية في أبيات لاذعة مرة. ويرسل الحكمة في شعر مرة أخرى.

ومما كتبه من شعر في تلك الزاوية من العدد ٩٣٩٤ الصادر يوم الاثنين ٢ شوال عام ١٤١٤هـ الموافق ١٤ مارس ١٩٩٤م تحت عنوان «أبابيل وغرابيل» ووطأ له بقوله:

١ ـ لا نرسل إلى الدول المستضعفة مندوباً سامياً من قبلنا كما كنا نفعل في الماضي من الزمان.

٢ ـ نساعد السيء لديهم للوصول إلى القيادة. ثم نعاديه على المستوى الحكومي ونحميه من أعدائه في الداخل على مستوى وكلائنا.

٣ ـ يظل هذا الزعيم الذي صنعناه وحشا يعجز عن إيذائنا. فينهش أهله وهذا هو المطلوب. انتهت التوطئة. وقد جعلها تحت توقيع «مستعمر مزمن».

أما الشعر فمنه قوله:

أبعد لحاك اللّه من مارق
يرفع صوت القبح كالناهق

جئت إلى قومك في سحنة
كسحنة المستوفز الحانق

وسـرت فـي ركـب الأُلـى غـامـروا
مـحـاذراً تـخـتـل كـالـسـارق

حـتـى إذا مـا أومـضـت فـرصـة
ألـقـيـت بـالأدنـيـن مـن حـالـق

كـيـف ولـيـت الأمـر من بـعـدمـا
كـنـت عـلـى «الـهـامـش كـالـنـاعـق»

لـسـت بـذي رأي يـنـادي بـه
ولـسـت فـي الأقـوال بـالـصـادق

ولـسـت يـوم الـحـرب ذا مـنـهـج
يـنـم عـن ذي خـبـرة حـاذق

بـل كـنـت وحـشـاً فـي «أضـابـيـرهـم»
يـظـهـر أحـيـانـاً كـمـا الـعـائـق

والقصيدة أطول من ذلك. وطابعها سياسي يوضح بعضاً من أساليب المستعمرين الذين يتلاعبون بعقليات بعض القيادات فيجعلون منها مطية طيعة تخدم أغراضهم. وتحقق أهدافهم السياسية. وأطماعهم الاقتصادية.

○○○○○

طريفة... مبعثها الإحالة إلى التقاعد!!

والإحالة إلى التقاعد يترتب عليها أشياء كثيرة تغير من حياة الموظف المتقاعد من الناحية المعنوية التي يترجمها إحساس ذاتي داخل النفس. ومن الناحية المادية التي ربما اهتز منها ميزان مدفوعاته نتيجة تقلص راتبه. وتغيرت من أجله قائمة النفقات اليومية المعتادة. وذلك بإلغاء الكثير من بنودها أو تخفيض في نسبة الكمية المعتاد شراؤها من الأغذية وغيرها.

والحقيقة أن تأثر ميزانية المحال إلى التقاعد شيء وارد في الحسبان. والعلم به سابق للأوان. ولهذا فإنه لا غرابة في الأمر لدى الكثير ممن يحالون إلى التقاعد. بل إن الحالة المادية ليست بذات أهمية بالغة ولا تقارن بتغير معنويات حياة الموظف في وسط مجتمعه. وتحوله من شخص اعتباري إلى شخص عادي يقترب من العيش على هامش الحياة.

ومن الطرائف التي مبعثها الإحالة إلى التقاعد. وتستحق بطبيعة جوهرها مكاناً أدبياً في سجل التاريخ الأدبي لكي تبقى تراثاً يقرأ ويستطرف به. ما روي من أن القاضي حفني ناصيف وهو أديب وشاعر قد أحيل إلى التقاعد حينما بلغ عمره ستين سنة..

وعلى إثر حالته كتب إلى رئيس وزراء مصر آنذاك ـ عدلي يكن ـ يعلمه فيها أنه ذو عيال لم يكتسب أحد منهم بعد. وذلك إشارة إلى أن معاش التقاعد لا يسد حاجته. وذلك بقوله:

صاحب الدولة يا شيخ الوزراء
حاجتي إن شئت تقضى بإشاره



بلغ الستين عمري إنما
لم أزل جم القوى جم الجداره

إن أولادي على كثرتهم
ليس فيهم بعد من يكسب باره

وحياتي كلها قضيتها
في القضا طوراً وفي التعليم تاره

فإلى التعليم أرجعني فلي
خدمات في الدجى كانت مناره

أو فأرجعني إلى دار القضا
إن لي في خدمة الحق مهاره

أو فألحقني بالأزهر كي
أجعل التعليم وقفاً للحضارة

وكان رئيس الوزراء عدلي يكن.. يقرض الشعر. فذيل الاستدعاء بحاشية قال فيها:

يا وزير العلم حقق رغبة
ليس في تحقيقها أي خساره

○○○○○

جانب من الإتقان في صناعة قصة تودد وبدر الزمان

وتودد الجارية هي بطلة حكاية لعب فيها خيال مؤلفها لعباً أدبياً يفوق التصور. . . فقد بدأها بالتاجر البغدادي الذي خشي أن ينقطع عقبه. فدعا ربه بأن يهبه ذرية تبقي ذكره وترث ماله فاستجاب الله دعاءه فحملت إحدى نسائه الأربع فوضعت ولداً ذكراً سماه بدر الزمان ـ بدر الزمان ـ ولقبه بـ «شاس الموهوب من الله بعد الإياس».

ولما تم له أربع سنوات طلب أبوه من الذين يجلبون المماليك والجواري الحسان أن يجلبوا له وصيفة مليحة صغيرة جميلة بنت خمسة أعوام ليربيها مع ولده بدر الزمان. وليستغني بها بدر الزمان عن سائر الناس وتكون له قرينة فجاءه أحدهم بجارية سماها ـ تودد ـ ورأى فيها جميع المواصفات من حيث الذكاء والنباهة والفطنة والجمال. . ففرح بها بدر الزمان واعتنى أبوه بها عناية فائقة. فتعلمت جميع الفنون والآداب. واللعب بسائر الآلات. مثلها في ذلك مثل بدر الزمان الذي مهر في جميع الفنون.

ولقد كان جزءاً كبيراً من الغرض الذي من أجله أنشئت تلك الحكاية منصباً على إصدار توجيهات ونصائح شاملة لبدر الزمان من والده. والتي كلها مواعظ وعبر. . ووصايا تنير طريق حياته. .

لكن بدر الزمان لم يعيها ولم يكن لها وقع في نفسه. بل خالفها حيث لعب بالمال بعد وفاة والده ولها عن ـ تودد ـ وكما أصبح صفر اليد من كل شيء ورثه عن أبيه إلّا ـ تودد ـ رجع إليها فقيراً بلا مال. . وقعدت هي وإياه ثلاثة أيام بلا طعام. . فأشارت عليه أن يبيعها على أمير المؤمنين هارون الرشيد. . وقالت: اطلب ثمني منه عشرة آلاف

دينار فإن استقلاني فقل له يا أمير المؤمنين باختبارها يعظم قدرها عندك ويقل ما طلبته فيها فإن هذه الوصيفة ليس لها في وقتها مثيل. ولا لها في عصرها نظير. ولا تصلح إلا لك.. ثم قالت له: إيّاك أن تأخذ ثمني إلا ما قلت لك عليه فإنه قليل في حقي ولعل يا سيدي أن الذي قضى علينا بالفراق يمن علينا بالتلاق عن قريب. فتفكر وقال: شورك فيه الخير والصواب. ثم بكى وأنشد يقول:

بعيني رأيت الحب وهو معانقي
فلا عاش من يسلو الحبيب ولا بقى

إذا كان لي في الناس شخص يودني
تمنيت أن يبقى لقلبي ما بقى

فباعدت الأيام بيني وبينه
فيا ليتنا من بعد ذا البعد نلتقي

عليه من النعمان سبع شقائق
وورد وريحان بأبهج رونق

وناديت من في القبر جاوبني الثرى
تأدب أيا مسكين ذا قبر عاشق

ثمانين عاماً عالج الحب في الهوى
ومات وما يدرك أماني مائق

فقلت رعاك اللّه يا ميت الهوى
وأسكنك النعيم إن كنت صادق

مساكن أهل العشق حتى قبورهم
عليها تراب الذل بين الخلائق

هذا وللموضوع صلة أو صلات سآتي على ذكرها تحت عنوان أو عنوانات لاحقة إن شاء الله.

تودد.. تنجح في الاختبار

أشرت في موضوع تقدم.. تحت عنوان «الإتقان في صناعة قصة.. تودد.. وبدر الزمان» إلى أن مؤلف القصة أو الحكاية كان هدفه عرض بعض العلوم وإهداء بعض النصائح والمواعظ والإرشادات وانتهيت عند عرض تودد على بدر الزمان حينما أصبح فقيراً بيعها على الخليفة هارون الرشيد بثمن عشرة آلاف دينار.. وأن يذكر له. أنه ليس لها مثيل في عصرها حتى يقدم على شرائها بتلك القيمة.. فلما عرضها بدر الزمان بذلك الأسلوب الذي لقنته إيَّاه تودد.. أراد هارون الرشيد أن يتحقق من صحة نبلها وذكائها. وأنه ليس لها مثيل في عصرها كما قال ذلك له بدر الزمان.. فأمر بإحضار علماء مختلف المعارف والآداب والفنون لمناظرتها. فجعل المؤلف شطراً كبيراً من المناظرة في علوم الدين بصفة عامة إذ الناس في أمس الحاجة إلى معرفة دينهم. وشطراً آخر لعلوم الصحة والنظافة لأهميتها وإبراز فوائدها. حيث سأل العالم بالطب عما يتعلق بصحة البدن ومنافع المأكولات والمشروبات. وهي تجيبه إجابة وافية ضافية إلى أن وصل إلى الخمر فقال لها: ما تقولين في شرب الخمر؟ قالت: لا تشرب الخمر وما شاكلها من الأنبذة. ويكفيك في الزجر عنه قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠] وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩][1].

---

(١) ومجمل الآية قوله تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾.

ولما بينت مضارها سألها عن منافعها. فذكرت شيئاً مما يزعم أنه منافع.. ثم قالت: لقد سأل بعضهم عنها مستفتياً بقوله شعراً:

أيـهـا الـسـادة أهـل الـعـلا
مـا قـولـكـم فـيـمـن غـدا ثـمـلا

وكـان قـد آلـى عـلـى نـفـسـه
لا يـشـرب الـصـبـهـا إلا عـلـى

ورد مـن الأغـصـان فـي وقـتـه
وسـوسـبـان بـيـن أهـل الـحـلـى

والـيـوم لا ورد ولا غـيـره
ولا لـه صـبـر بـأن يـمـهـلا

أفـتـوه مـأجـوريـن قـد جـاءكـم
فـي سـرعـة حـيـران بـيـن الـمـلا

قال الراوي... فعند ذلك قال لها الطبيب: لله در من قاله... أفيديني الجواب؟. قالت: نعم. وهذا الجواب شعراً:

أيـا فـقـيـه الـعـصـر فـي وقـتـه
مـن كـان ذا عـشـق بـهـا شـغـلا

يـشـربـهـا مـع أغـيـد أهـيـف
مـوردا الـوجـنـة قـد كـمـلا

فـي طـرفـه سـقـم وفـي خـده
ورد وفـي فـيـه الـسـلاف حـلا

ثم أضافت قائلة: روي أن النبي ﷺ حرمها لقوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ﴾.

تودد.. حلالة الألغاز!!

في موضوع تقدم تحت عنوان «تودد.. تنجح في الاختبار» ذكرت أن هارون الرشيد رحمه الله أحضر علماء مختلف العلوم والمعارف لمساءلة - تودد - لإثبات صحة ما قاله بدر الزمان من أنها آية عصرها في العلم والمعرفة والذكاء والدهاء والفطن والنباهة حين عرض بيعها عليه.

وأشرت إلى ما تطرق إليه بعض العلماء في مساءلتها ثم توقفت خشية الإطالة.. وها أنذا أعود إلى مواصلة الإشارة إلى جزء من تلك المناظرة التي مهر في صياغتها ذلك الذي آنف «مناظرة تودد الجارية».

فبعد مساءلتها عن الفلك والمنجمين والفلسفة تبين أنها فحمت علماء تلك العلوم حيث برزت في إجاباتها فاعترفوا لها بأنها أعلم منهم باختصاصهم.

قال الراوي لتلك القصة: ثم أخذ الشاعر الفيلسوف إبراهيم النظام دوره في المناظرة وأخذ يلقي عليها الأسئلة ويتنقل بها من علم إلى علم وهي تجيب إجابات تبهر العقل حتى دخل في حلقة الألغاز فما توقفت في التفكير عند أي لغز طرحه عليها بل إنها تجيب عليها في لمح البصر..

ومن جملة ما ألقاه عليها من الألغاز قوله: خبريني عن قول الشاعر:

ألا قل لأهل العلم ذي الفهم والأدب
ومن كان أهلاً للعلوم أولى القرب

ألا بـيـنـوا لـي أي شـيء رأيـتـمـو
من الطير في أرض الأعاجم والعرب

فـيـؤكـل مـطـبـوخـاً لـذيـذاً وتـارة
فيؤكل مشوياً إذا حط في اللهب

ولـيـس لـه لـحـم ولـيـس لـه دم
وليس له عـرق وليس له عـصـب

وليس له شعر على الجلد واضح
ولـيـس لـه رأس ولـيـس لـه زغـب

ولـيـس لـه رجـل ولـيـس لـه يـد
ولـيـس لـه ريـش ولـيـس لـه ذنـب

وهـذا لـه لـونـان.. لـون كـفـضـة
ولـون صـقـيـل حـالـه يـشـبـه الـذهـب

ولا هــو ذو روح ولا هــو مــيــت
ألا فـأخـبـروني إن هـذا هـو الـعـجـب

قال الراوي:

فقالت: طولت المسألة في شيء قيمته فلسان. أما قولك شيء من الطير فهي البيضة. وهي توجد في أرض الأعاجم والعرب. وتؤكل مشوية إذا دست في النار... لها لونان.. فالذي يشبه الفضة هو البياض. والذي يشبه الذهب هو الصفار ولاهيه حية. ولا ميتة. فهذا تفسير مسألتك العجيبة.

○○○○○

نهاية قصة تودد

في موضوعات تقدمت هذا الموضوع استعرضت حياة بدر الزمان مولى «تودد» وكيف كانت ـ تودد ـ جارية له.. وذكرت الأسباب التي أودت بتودد إلى مناظرة العلماء عند أمير المؤمنين هارون الرشيد. وتغلبها عليهم.. وأشرت إلى أن صانع تلك القصة ـ ولا أستبعد أنه إبراهيم النظام ـ. قد أجاد في وضع القصة بذلك الأسلوب التناظري المشوق أيما إجادة. ولعلها كان من صنعه قبل تزندقه.

أما نهاية القصة فجعلت هارون الرشيد رحمة يرق قلبه ويعطف على ـ تودد ـ وعلى ـ مولاها بدر الزمان ـ حيث قال رحمه الله لبدر الزمان الذي كانت دموعه تجري فوق خديه: أتحب الجارية يا بدر الزمان؟. قال بدر الزمان: نعم يا مولاي.. ثم بكى بكاء شديداً. وأنشد يقول:

نار تهب ودمع العين مسكوب
وناظري عنه طيب النوم محجوب

ولي هوى ما يقول الطول أيسره
حقاً وأكثره همّ وتعذيب

يبيت حلف الهوى والوجد أثقله
وقلبه نحو من يهواه مقلوب

كم ليلة بتها في حب جارية
مبلبل في الهوى حيران مسلوب

يقول لي عاذلي لما يعانيه
هل هذه يوسف أم أنت يعقوب

أقول والشوق يطويني وينشرني
والقلب من لاعج الأشواق ملهوب

نعم نعم هذه من قد بليت بها
ومن هواها لقلبي كان مكتوب

فامنن بها يا أمير المؤمنين عسى
يقر قلب بنار الشوق ملهوب

قال الراوي: فلما سمع أمير المؤمنين منه هذا الكلام.. وهذا الشعر والنظام.. رق قلبه لهما. وعطف فؤاده عليهما. وقال له: خذها عطية مني لك.. وخذ ثمنها منّي إليك. وبارك لك الله فيها.

قال الراوي.. فأخذها مولاها وأخذ الثمن بعد ما قبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين هارون الرشيد. وانصرفا إلى منزلهما فرحين مستبشرين. وأقام بدر الزمان وجاريته تودد في أمان واطمئنان في العيش الرغد. وكانا يترددان على الخليفة ويجالسانه. ويناادمانه. وينالان منه الخلع السنية والمواهب المرضية إلى أن أتاهم هادم اللذات. ومفرق الجماعات. وميتم البنين والبنات. وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

○○○○○

المفتاح.. لغة ومعنى!!

وفتح الشيء كما هو في كتب اللغة نقيض إغلاقه.. قال ابن منظور في معجمه «لسان العرب» - فتح - والمِفْتح بكسر الميم والمفتاح: مفتاح الباب وكل ما فتح به الشيء قال الجوهري: وكل مستغلق. والجمع مفاتيح. ومفاتح. والمفتاح والمفاتيح تستخدم من حيث اللفظ لأكثر من غرض ومعنى.. أما ما هو مقصور على فعله أو ما يستوحى من سياق الحديث الذي يرد فيه فهو المفتاح المعروف والخاص بالمَفْتح - بفتح الميم - وهو الخزانة لصنف من الأشياء. وجمع المَفْتَح الخزانة: المفاتح - أما جمع المفتاح الذي يفتح به المغلاق فمفاتيح كما تقدم. قال تعالى في الآية التي ذكر فيها عدم الحرج في الأكل في بيوت عددها تباركت أسماؤه.. ومنها قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ...﴾ الآية [النور: ٦١] قال ابن كثير رحمه الله: قال الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يذهبون في النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه. فكانوا يقولون إنه لا يحل لنا أن نأكل. وإنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم. وإنما نحن أمنا فأنزل الله ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾.

- وقوله تعالى وهو يقص علينا قصة قارون في سورة - القصص - الآيــة ٧٦: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾. قيل: إن معنى «ما إن مفاتحه لتنؤ بالعصبة» أي تميلُهم من ثقلها.

ومما جاء في الأشعار من معاني مادة المفاتيح قول أحدهم من جملة أبيات قصيدة له:

ومفتاح توفيق الفتى صدق رغبة
ورهبته ثم الدعاء المكرمُ

لدى اللّه مفتاح الإجابة وأعلمن
بأن جميل الزهد للعبد مغنم

ويفتح للعبد التجلي برغبة
بدار البقا فازهد لعلك تغنم

ومفتاح إيمان العباد تفكر
بما كان رب العالمين دعاهم

إلى نظر فيه وأن يتفكروا
به ودخول العبد ذاك المفخم

على ربه مفتاح ذاك سلامة
وإسلام قلب للإله فأسلموا

ومع ذاك إخلاص بحب وبغضه
وفعل وترك كل ذلك يلزم

ويحيى قلوب العارفين تضرع
بأوقات أسحار فكن أنت منهم

والقصيدة طويلة فهي تبلغ نحواً من ٣٥ بيتاً وسوف أقتطف منها شواهد لما سيلي من موضوعات ذات علاقة بالمفتاح.

○○○○○

الفتح والاستفتاح

ومعنى الفتح ليس موقوفاً على معالجة فتح قفل الباب المغلق كما يتوهمه بعضهم. وإنما هو يستعار لأشياء كثيرة لا يشملها الفعل الحركي لمفتاح الباب المعروف بشكله وفعله.. فمن ذلك قوله تعالى. في سورة فاطر. آية ٢: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾، وقوله تعالى في سورة الأنفال آيــــة ١٩: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾، وقوله تعالى في سورة الفتح آية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾، وقوله تعالى في سورة النصر آية ١: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ وقوله تعالى في سورة السجدة آية ٢٨، ٢٩: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾، وقوله تعالى في سورة القمر آية ١١: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾، والآيات الدالة على الفتح والاستفتاح كثيرة. والفتح الحكم قال تعالى في سورة الأعراف من الآية ٨٩ مخبراً عن شعيب: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾. ومن أسماء الله الحسنى: الفتاح - قيل: هو الذي يفتح أبواب الرزق لعباده. وقيل معناه الحاكم بينهم - وأم الكتاب يقال لها الفاتحة - وفواتح القرآن: أوائل السور - وفي الحديث الشريف: «أُوتيت مفاتيح الكلم» وفي رواية مفاتح - وهو ما يسر الله له من البلاغة والفصاحة والوصول إلى غوامض المعاني وبدائع الحكم ومحاسن العبارات والألفاظ التي أغلقت على غيره وتعذّرت عليه.

وتفاتح الرجلان: إذا تفاتحا كلاماً بينهما وتخافتا دون الناس وفاتحه، مفاتحه، وفتاحاً: حاكمه. وفي حديث ابن عباس: ما كنت أدري ما قوله عزَّ وجلَّ: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها فقال: أفاتحك أي أحاكمك ـ ذكر ذلك ابن منظور في: «لسان العرب».

وقرأت قصيدة عَدّد فيها ناظمها مفاتيح بعض الأفعال المشينة والمضرة التي يجب الحذر من ارتكابها.. منها قوله:

ومفتاح ذي المقت الزنا سيء الغناء
وذلك قرآن اللعين ومأثم

وإطلاق طرف الشخص مفتاح عشقه
لمستحسن الأشباح فهو محرم

وبالكسل المذموم مع راحة الفتى
يخيب وكل الخير لا شك يحرم

ومفتاح كفران الفتى وبريده
معاصيه والعاصي قريباً سيندم

وباب نفاق العبد يفتحه إذ
يكون كذوباً والكذوب مذمم

وشح الفتى والحرص مفتاح بخله
ومفتاح أخذ المال من حيث يعلم

بأن ليس حلاً مع قطيعة رحمه
وكل ابتداع في الخليقة يعلم

مفتاحه الإعراض عما أتى به
نبي الهدى من سنة تتعلم

مفاتيح بعض الأشياء

والمفتوح هو الذي وقع عليه فعل المفتاح الذي تقدم ذكره تحت عنوان «المفتاح لغة ومعنى» قال ابن منظور في معجمه «لسان العرب» ـ فتح ـ: فتحه يفتحه فتحاً. وافتتحه وفتحه فانفتح وتفتح.

ولقد ذكرت في موضوع تقدم تحت عنوان «الفتح والاستفتاح» بعضاً مما لا يشمله الفعل الحركي للمفتاح وفي هذا الموضوع أضيف بعضاً من أقوال العلماء وأهل الفكر فيما يرتبط بمفهوم الفتح والافتتاح.. قال ابن القيم في كتابه: «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»: وقد جعل الله لكل مطلوب مفتاحاً: فجعل مفتاح الصلاة الطهور كما قال ﷺ: «مفتاح الصلاة الطهور» ومفتاح الحج الإحرام.. ومفتاح البر الصدق. ومفتاح الجنة التوحيد ـ وكلمة التوحيد.. لا إلٰه إلّا الله. وهي أول دعوى أهل الجنة أما آخر دعواهم فقوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] ـ ومفتاح العلم حسن السؤال.. ومفتاح النصر والظفر الصبر. ومفتاح المزيد الشكر.. ومفتاح الولاية المحبة والذكر.. ومفتاح الفلاح التقوى ومفتاح التوفيق الرغبة والرهبة.. ومفتاح الإجابة الدعاء ـ ومفتاح الرغبة في الآخرة الزهد في الدنيا.. ومفتاح الإيمان التفكير فيما دعا الله عباده إلى التفكير فيه.. ومفتاح الدخول على الله إسلام القلب وسلامته له والإخلاص له في الحب والبغض والفعل والترك.. ومفتاح حياة القلب القرآن والتضرع بالأسحار وترك الذنوب ومفتاح حصول الرحمة الإحسان في عبادة الخالق والسعي في نفع عبيده.. ومفتاح الرزق السعي مع الاستغفار والتقوىٰ. ومفتاح العز طاعة الله ورسوله، ومفتاح الاستعداد

للآخرة قصر الأمل.. هذا بعض مما ذكره ابن القيم من مفاتيح الخير أما مفاتيح الشر فقد ذكر منها الشيء الكثير. منها قوله: والخمر مفتاح الإثم، والغناء مفتاح الزنا، وإطلاق النظر في الصور مفتاح الطلب والعشق.. والكسل والراحة مفتاح الخيبة والحرمان، والمعاصي مفتاح الكفر، والكذب مفتاح النفاق، والشح والحرص مفتاح البخل.

ومما نظم من الأشعار فيما يتعلق بمعنى المفتاح قول الشاعر:

مفاتيح كانت للشرور وضدها
فقد فاز من بالخير والشر يعلم

وأضحى بما يدري من الحق عاملاً
فكن عاملاً بالعلم إن كنت تعلم

وقد جعل المولى لهن مفاتحاً
تنال بها واللّه بالحق أعلم

فمفتاح شرعي الصلاة طهورنا
ويفتح حجاً محرم حين يحرم

وبالصدق فتح البر والعلم فتحه
بحسن سؤال عن فتى يتعلم

ومستحسن الإصغاء والنصر فتحه
مع الظفر المحمود بالصبر فاعلموا

وتوحيدنا للّه مفتاح جنة النـ
ـعيم فبالتوحيد دينوا تنعموا

وبالشكر للنعماء فتح زيادة
ويحصل حب والولاية تغنم

○○○○○

امرأة كشاة أشعب

لقد أخذ بنا الجد في تسطير ما تقدم من موضوعات مأخذه، فاستثار رائحة السأم وحرك هاجس الملل، فطرفت العين إلى الاستراحة، والنفس إلى الفكاهة وطلب الفكر شيئاً من الطرافة، فرأيت أن أعرض شيئاً مما استظرفه الثعالبي في كتابه الشهير «يتيمة الدهر» حتى تستروح نفوسنا معاً، وإن كان فيه من ساقط القول وسيئ الأدب ما فيه.

قال الثعالبي في أثناء نقله مما اختاره من بعض مقطعات وقصائد الشاعر الحسين بن أحمد بن الحجاج المتوفى سنة ٣٩١هـ: إن ابن الحجاج قال في رجل سقطت امرأته من السطح فماتت:

عفا اللّه عنها: إنها يوم وَدَّعتْ
أجلُّ فقيد في التراب مغيبِ

ولو أنها اعتلت لكان مصابها
أخف على قلب الحزين المعذب

ولكن رأت في الأرض أفعى مُجدَّلاً
على قدر غرمول الحمار المشغب

فظنته «...» والظنون كواذب
إذا أخبرت عن عام ما في المغيب

وأهوت إليه من يفاع ودُونه
ثمانون باعاً في علو مُصَوّب

فصارت حديثاً شاع بين مصدق
تحققه علماً وبين مكذب

سعى الطمع المردي إليها بحتفها
ومن يمتثل أمر المطامع يعطب

فاعْظَمَ يا هذا لك اللّه ربُها
وربك أجر الثكل في شاة أشعب

ولقد نظر ابن الحجاج حينما ذكر شاة أشعب في البيت الأخير إلى الحكاية الظريفة التي ملخصها أنه قيل لأشعب: هل رأيت أطمع منك؟ قال: نعم. شاة كانت لي على سطح فنظرت إلى قوس قزح فظنته حبل قت فأهوت إليه واثبة فسقطت من السطح فاندقت عنقها.

ولقد قرأت فيما يروى من أساليب التوهم والخداع، والمغالطة: أن أشعب اشترى بقرة كانت لا تأكل عند صاحبها إلّا برسيماً أخضر، فقدم لها أشعب شيئاً من العلف اليابس فعافته. فعمد إلى خداعها فوضع فوق عينيها نظارة زجاجها أخضر، فأخذت تأكل ذلك العلف اليابس حيث رأته من خلال زجاج النظارة أخضراً كلون العلف الذي كانت تأكله عند صاحبها الأول.

○○○○○

على أثر مشاهدة مباراة في المرناة!!

في يوم من الأيام شاهدت في التلفاز نقل مباراة في كرة القدم بين فريقين متضادين في اللعب، فكانت هناك أخطاءٌ كثيرة تصدر من أحدهما ضد الآخر.. منها الحركي، واللفظي: فالحركي منها ما يتصف بالخشونة والقسوة، وفرض السيطرة على الكرة بأساليب مخالفة للأنظمة.. أما اللفظي منها فيتمثل في شتم اللاعب الذي ينازعه على أخذ الكرة منه. والاعتراض على رأي الحكم بأسلوب كلامي جاف وخال من الأدب.. فقلت في نفسي: لو كان نادي ذلك الفريق قد جعل من الأدب الموروث مادة يتلقاها أفراده كما هي الحال في أنديتنا في المملكة العربية السعودية لما حصل ذلك الذي رأيته.

وانتهت المباراة بمشاغبة الحكم والاعتراض على حكمه بما ينافي الخلق الأدبي الذي يجب أن يتحلى به الرياضي وخاصة لاعب كرة القدم.. وحيث علقت في ذهني تلك التصرفات التي لا تليق بلاعب كرة القدم. وجدت نفسي متهيئاً للبحث عن تعريف بأدب الرياضة في بعض الصحف المتخصصة فلم أجد لها اهتمام بذلك بقدر ما لها اهتمام بوصف المباريات وبيع وشراء اللاعبين بين الأندية. بل إن كل ما وجدته فيها أخبار مباريات تحت عناوين مثيرة للغاية. إذ هي أشبه ما تكون بعناوين مراسلي المعارك الطاحنة. بل إن منها ما هو أشد إثارة. فتمنيت أن يكون للرياضة بصفة عامة أدب يتفق وواقعها الاجتماعي. ويسمو بمستواها سمواً يجعلها محببة إلى النفوس ويزيد من الاهتمام بها عالمياً.. وهذا في نظري لا يحصل إلّا أن تستكتب الصحف والمجلات أدباء يؤثرون بكتاباتهم في الوسط الرياضي بصفة عامة. إذ

ليس أحلى من مزج الأدب بالرياضة، والرياضة بالأدب، كيف لا. وهذا الشاعر السعودي عدنان أسعد يقول من قصيدة له:ـ

«أدب» أجل و«رياضة»
صفحاتها شيء بديع

لا شك أن التوأمين
كليهما عند الجميع

أمران مطلوبان للإ
نسان في شتى الفروع

ومنها قوله:

لكنه الأدب الرفيع
هو النضارة والربيع

وهو الجمال منمنماً
وهو الثقافة للجموع

ما ضر لو وجه الأديب
أمامه فرصا تشيع

مثل الرياضة صفحة
بل صفحتين هما الشموع

وهما لأصحاب اليراع
مشاعل فوق الربوع

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ١٣ بيتاً وفيها بعض اللوم على التقليل من صفحات الأدب.

○○○○○

اللحظات الأخيرة من مشهد التوديع!!

ويصور شعراء الغزل لحظات الوداع تصويراً يقطر رقة من حيث الأسلوب اللفظي ويطفح حزناً من حيث المفهوم الفعلي والحركي الذي ينتاب المتوادعين.

ورسم الصورة للحظات الوداع ربما لا تأتي في لون واحد متكامل لأنها ليست من منبع إحساسي واحد وإنما هي ملونة بلون العلاقة التي تربط المتوادعين.

ولهذا فإنني سأحاول إظهار ملمح خفي لم يطرقه إلّا القليل من شعراء الغزل الذين تفننوا في وصف ساعة الوداع تفنناً عجيباً. وهذا الملمح يكمن في الإشارة التصويرية لما يحدث في اللحظات الأخيرة من فصل مشهد اللقاء التوديعي الذي يشتمل على عامل حركي تقوم بدوره اليدان قياماً يرسم الصورة الحقيقية لألم الفراق.. ويشترك في إنجاح تأثير حرقة الوداع على النفس فيظنان الدمع، وزفرات التَّعَبُر والبكاء.

يقول الشاعر البهاء زهير، وهو من الشعراء الذين أبدعوا في رسم صورة الوداع مترجماً شعور حبيبته التي ما إن سمعت بفراقه حتى قال لسان حالها له:

وقـــائـلــة لــمـــا أردتُ وداعــهـــا

حبيبي. أحقاً أنت بالبين فاجعي؟[1]

---

(١) البين: الفراق.

فيا رب لا يَصْدُق حيث سمعته
لقد راع قلبي ما جرى في مسامعي

ثم بعد ذلك أخذ في وصف الفصل الحركي الذي بدا منها حينما تأكدت من صحة فراقه لها:

وقامت وراء الستر تبكي حزينة
وقد نقبته بيننا بالأصابع

بكت فأرتني لؤلؤاً متناثراً
هوى فالتقته في فضول المقانع[1]

ولما رأت أن الفراق حقيقة
وأني عليه مكره غير طائع

تبدّت فلا واللّه ما الشمس مثلها
إذا أشرقت أنارها في المطالع

وفي اللحظة الأخيرة تصل درجة حرارة الوداع قمتها فلا ترى إلّا إشارة باليد ولا تسمع إلّا بكاء تنهمر منه الدموع فتجعل موقف الوداع مستنقفاً:

تسلم باليمنى عليّ إشارة
وتمسح باليسرى مجاري المدامع

وما برحت تبكي وأبكي صبابة
إلى أن تركنا الأرض ذات نقائع

والقصيدة أطول من ذلك.

○ ○ ○ ○ ○

(١) مسحت دموعها بأطراف قناعها.

الحروف المهملة!!

واختيار الحروف المهملة، أو المعجمة مع الاحتفاظ بوضوح المعنى الذي يتناوله المتحدث بكلام نثري.. أو الشاعر بأسلوب نظمي. تكون الصناعة واضحة عليه تمام الوضوح، لكن الفرق عند تقييم التعبير عن المعنى المقصود الذي تم طرحه بصورة شعرية أو نثرية يكاد يكون هو المقياس لمهارة الشاعر أو الناثر الذي يحدد مدى تعمقه في اللغة، وسعة إحاطته بمرادفاتها، وتجانس معانيها التي في شكل ألفاظ مختلفة في رسمها.

ـ وهذا النوع من أساليب الإنشاء النثري أو الشعري يعد فناً من الفنون التي تأخذ عنواناً خاصاً بها في صفحة الأدب.

والتدليل على وجود هذا الفن كفرع مستقل في الأدب لا يحتاج إلى بحث وتفتيش فكتب الأدب قد اشتملت على كثير منه.

أما ما اخترته كدليل على ذلك فهي المقطوعة التي تضمنها ديوان الشاعر الأمير المغوار عبد القادر الجزائري المولود عام ١٢٢٢هـ والمتوفى سنة ١٣٢٤هـ وسبقت بتعريف هذا نصه:

نشر السيد محمود الحمزاوي مفتي دمشق تفسيراً جمع من علوم عصره فأوعى. وقد أهدى الأمير نسخة منه فاطلع عليها وقرظ التفسير بالأبيات التالية.. والملاحظ أن الأمير تعمّد نظم القصيدة بالحروف المهملة إظهاراً للبراعة في معرفة ألفاظ اللغة جرياً على عادة عصره. من العناية بالألاعيب اللفظية عن ابتكار المعاني:

سرح سوادك والطروس سماءُ

ما للسماك لدى العروس علاءُ



حمداً لملهم أوحد العلماء و
محمود علوماً مالها إحصاء

هو أعلم العلماء واحد عصره
هو طود سر هدى له إهداء

وهو الإمام وأهل كل محامد
ما دعد؟ ما علوى؟ وما أسماء

أهدى الورى السحر الحلال وكم له
همٌ لها دوماً عُلى وولاء

اللّه أولى آل طه سؤدداً
ومحامداً لعلومها إملاء

واللّه ودهم. وأعطاهم حمى
سراً علاه للسماك سماء

للّه ما أحلى وأملح مورداً
أهداه. وهو إلى الهموم دواء

○○○○○

جدل حول قراءة عبارة في بيت شعر!!!

وبيت الشعر الذي تضمن العبارة التي دار حولها الجدل في مجلس ضم عدداً من الأدباء هو قول امرئ القيس:

أراهن لا يحببن من قلّ ماله
ولا من رأين الشيب فيه وقوسا

والعبارة التي حصل فيها الجدل هي «أراهن». ويتضح من سياق البيت أن امرئ القيس يحقق بأن النساء يبدين صداً. ويرغبن عن كل من لاحت في مفرقة لوائح الشيب.

وكان سبب سياق هذا البيت في ذلك المجلس هو اشتمال الحديث على الشيب في عيون النساء... ولما استشهد به أحدهم وقد فتح همزة «أراهن» وضم هاءها جاءت بمعنى ـ أبصرهن ـ فاستحسن كشاهد على تنكر النساء لمن دبّ فيه الشيب..

لكن أحد الحاضرين قال: إن امرئ القيس لم يراهُنّ على تلك الحالة التي وصفها.. بل إنه طلب المراهنة على أنهُن صائرات إلى إنكار كل من شاب وقوس ظهره الكبر.. وإن صحة قراءة العبارة هي بضم الهمزة وكسر الهاء «أُراهِنُ» من المراهنة على الشيء ـ فأخذ الجدل حول ذلك مجراه وحمي وطيسه. وانقسم الحاضرون إلى ما يشبه القسمين.. قسم يرى أن الصحة والصواب في قراءة العبارة بفتح الهمزة وضم الهاء وتشديد النون من الرؤية.. وقسم يستحسن قراءتها بضم الهمزة وكسر الهاء لتصير من المراهنة. وليس من الرؤية.



أما نصها في الديوان الذي ألفه وحققه حسن السندوبي وطبع عام ١٣٧٣هـ بمطبعة الاستقامة بالقاهرة فتختلف عن ذلك فهو «أُراهُنَّ» بضم الهمزة والها ـ أي أنه قد دُلّ على رؤيتهن. والدال له مجهول. والفرق في الرؤية، البناء للمعلوم بفتح الهمزة، وللمجهول بضمها، وليس للرهان أو المراهنة في ذلك معنى إطلاقاً. . . ـ والبيت من قصيدة قالها امرؤ القيس حينما ألم به المرض الذي مات فيه وهو بأرض الروم. ومطلعها:

ألما على الربع القديم بعسعسا
كأنّي أُنادي أو أُكلم أخرسا

ومنها قوله:ـ

ويا رُب يوم قد أروح مُرَجِّلاً
حبيبا إلى البيض الكواعب أملسا

يُرَعْنَ إلى صَوْتي إذا ما سمعنه
كما تَرْعوِي عيط إلى صوت أعيسا

أُراهُنّ لا يحببن من قلّ ماله
ولا من رأين الشيب فيه وقوسا

وما خلت تبريح الحياة كما أرى
تضيق ذراعي أن أقوم فألبسا[1]

فلو أنها نفس تموت جَميعَةً
ولكنها نفس تساقط أنفسا[2]

---

(١) يعني أن المرض أعجزه عن لبس ثوبه.

(٢) جميعة: يعني مرة واحدة. ولكن المرض أخذ منها شيئاً فشيئاً. وقيل: المراد أن في موته موت كثير ممن يعيشون في كنفه وتحت رعايته.

ولـو أن نـومـاً يـشـتـرى لاشـتـريـتـه
قليلاً كتغميض القطا حيث عرسا

وبُـدّلـتُ قـرحـاً دامـيـاً بـعـد صـحـة
فيا لك من نُعمى تحولن أبؤسا

○○○○○

اتفق مع النويميس

كتب الشاعر كريم خلف النويميس موضوعاً تحت عنوان «ابن عقيل وتمسكه بالحداثة» ونشرته جريدة الندوة في عددها ١٠٦٠٣ الصادر يوم الأحد ٩ جمادى الأولى عام ١٤١٤هـ. وقد ألقى اللوم فيه على الشيخ أبي عبد الرحمٰن بن عقيل الظاهري بسبب تأييده للحداثة. وذلك في المحاضرة التي ألقاها بمدينة حائل في ٩/٤/١٤١٤هـ، تحت عنوان: «جدلية العقل الأدبي» والتي منها قوله: «إنه لو بعث أحد شعراء الجاهلية وألقى قصيدة من قصائده لما وجد التصفيق له كالتصفيق للشاعر التراثي ذي اللغة العادية».

قال النويميس: أراد بهذا أن يقول: إن جهل الجماهير بالحداثة وراء عدم قبولهم لها.

ونحن نقول له: دع الشاعر التراثي ذي اللغة العادية جانباً، ولكن قارن بين شاعر جاهلي وآخر حداثي لتنظر أيهما أولى بإعجاب الجماهير وتصفيقهم فهذا أساس المقارنة.. وهذا نموذج من شعر الحداثة للسياب وهو يعتبر من دعاة الحداثة، فقارنه بفطاحل الأدب الجاهلي. يقول السياب:

سأهواك حتى نداء بعيد
سأهواك حتى يا للصدى

تلاشت على قهقهات الزمن
أصيخى إلى الساعة النائبة

بقايا في ظلمة في مكان
سأهواك حتى بقايا رنين

وظل الصدى في خيال بعيد
تحدين دقاتها العاتية

سأهواك حتى سأهوى نواح
تحدين حتى الغدا

كما أعولت في الظلام الرياح
سأهواك ما أكذب العاشقين

* * *

ويقول الحطيئة:

ألا طرقتنا بعد ما هجدوا هند
وقد سِرْنَ خمساً واتلأبَّ بنا نجد

ألا حبذا هند وارض بها هند
وهند أتى من دونها النأي والبعد

وهند أتى من دونها ذو غوارب
يُقَمِّصُ بالبوصى مُعْروْرف ورد

وإن التي نكّبتُهُا عن معاشر
عليّ غضاب أن صددت كما صدوا

أتت آل شمَّاس بن لأي وإنما
أتاهم بها الأحلامُ والحسبُ العد

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتُها
وإن غضبوا جاء الحفيظةُ والجد

اقلوا عليهم لا أبا لأبيكم
من اللوم أو سدُّوا المكان الذي سدُّوا

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البناء

وإن عاهدوا أفوا وإن عقدوا شدّوا

قلت: ما أبعد الفرق في لغة الشعر وأبنائه بينهما: الحطيئة وأضرابه في الثريا والسياب واتباعه في الثرى وإذا تجاوزنا الفروق التي لا يصل فيها شعر الحداثة إلى كعب الشعر الأصيل. وأخذ بالشكل فقط. فإن جمال نظام صدور وأعجاز الأبيات المقفاة يكفي لخذل قصيدة الحداثة أو التي يسمونها الشعر الذي يشبه نظام يسطره أثر الغراب. بل أثر الغراب المكسور الجناح.. هذا فضلاً عن نغم التفعيلة واللحن الموسيقي المغرب.

○○○○○

هذان الأبوان هما المذنبان

تنساق عواطف بعض الناس نحو الجيوب المملوءة بالنقود. فتعمى أبصارهم وبصائرهم عن الأسباب التي تحضر عليهم الانسياق نحو أصحاب تلك الجيوب. ولا يرون بعيون عقولهم علامات التحذير المنصوبة على الطريق المؤدية إليهم. وكأنما هم في ذلك الإنسياق نحو أصحاب الجيوب. فريق من الحيوانات التي تتجه نحو ما اخضر من الأرض.

ونحن حينما نلقي نظرة في عصرنا هذا على مجتمع ما نجده إلّا ما قل منه مجتمعاً مادياً. بل إن حبه للمادة قد حمله على تجاوزات حدود كثيرة منها بعض الحدود الشرعية. والأعراف والتقاليد الاجتماعية المرتبطة بالآداب السامية والأخلاق الفاضلة والنبل والشيم والشهامة.

وينحصر سياق المثل على بعض تلك التجاوزات التي مارس عمداً في فئات انتزع حب المادة من قلوبهم الرأفة والعطف والحنان فما عادوا يبالون بتزويج بناتهم لمن ليسوا لهن بكفء، من حيث الدين والخلق.. وإنما كان معيارهم في ذلك. المستوى المالي الذي ينالون منه نصيباً وافراً، فجعلوا بناتهم سلعاً معروضة في المزاد العلني يشتريها الأكثر نقوداً. صارفين النظر عن السلوك والاستقامة وما تحمله الرجولة من معنى يؤهل أصحابه بأن يكونوا أزواج نساء، وأرباب أسر، وغير ناظرين إلى عواقب سفاهتهم وتأثير طغيان المادة على إبائهم وعزة نفوسهم... ولقد صور الشاعر الدكتور عزيز فهمي هذا الجانب المزري في قصيدة اجتماعية نقدية هي غاية في رسم صورة تفريط الأباء بالحق المشروع لبناتهم. وتفضيل المادة على كل اعتبار ومصلحة

لهن، وجعلهن ضحية كل سفيه وعابث من تلك القصيدة قوله:

وسـط الـقـصـور الـشـاهـقـات
اسـمـعْ بـكـاء الـغـانـيـات
الـنـاعـسـات الـمـوقـظـات
الـرامـيـات الـفـاتـنـات
يـبـكـيـن مـن ألـم دفـيـن

الـمـال عـنـدهـم كـثـيـر
والـخـيـر عـنـدهـم وفـيـر
الـلـبـس صـوف أو حـريـر
والـعـقـد مـن ماس نـضـيـر
والـنـاس صـاروا حـاسـديـن

قـد زوجـوهـا مـن وزيـر
أيـامـه كـذب وزر
فـي الـلـيـل يـرتـشـف الـخـمـور
لـكـن مـنـصـبـه خـطـيـر
والـذنـب ذنـب الـوالـديـن

مـا زوجـوهـا إنـمـا
فـي الـشـوق بـيـعـت كـالإمـا
والـوالـدان تـسـاوَمـا
الـشـاريـان تـنـعـمـا
والـبـنـت زفـت لـلـمـنـون

لـمـا انـقـضـى شـهـر الـعـسـل
بـمـروره قـطـع الأمـل

الزوج عاد إلى الغزل
بالبيض ربات الكلل

شأن الرجال الفاسقين

نسي العهود الماضيات
ليعيش بين المومسات

ومع الغواني الفاسقات
يقضي المآرب منكرات

والكأس صار له خدين

الزوج صار إلى التلف
فتراه في جنح السدف

يمشي الذليل أو الوجف
والمال ضاع مع الشرف

لا يردع المغرور دين

بنت الكروم تحكمت
في عقله وتسلطت

ولنفسه هي زينت
لعب القمار فأذعنت

نفس الغبي المستهين

والقصيدة أطول من ذلك فهي سبعة عشر بيتاً على هذا النظام التخميسي. وموجودة في ديوانه «ديوان عزيز».

○○○○○

أيوب صديق يتمنّى أن يعيش بقية عمره في المدينة المنورة!!

وأيوب صديق هو فيما يظهر لي أحد المذيعين في الإذاعة البريطانية، وبحكم عمله فهو مقيم في مدينة لندن عاصمة انجلترا.. وبحكم طول إقامته هناك يكون قد عرف الكثير من طباع أعداء الله من النصارى وغيرهم من أصحاب الديانات الفاسدة والعقائد الباطلة وما يمارسونه من إباحيات تنافي الأخلاق، وتهدم الشيم، وتميت النخوة، وتعطل حميد الصفات، وتقتل الرجولة في النفس.. بل تجعل الإنسان في كثير من أفعاله ومواقفه وتصرفاته شبيهاً بالحيوان الذي لا يمنعه عن ممارسة شهواته عقل، ولا دين، ولا وزاع من خلق إنساني نبيل.

وهذه الصفات التي لمسها الشاعر أيوب صديق في ذلك المجتمع الهمجي أوجدت في نفسه شيئاً من الاشتمئزاز النفسي، بل حركت في نفسه تذمراً حمله على التماس طرق الهروب من ذلك المجتمع والابتعاد عنه حتى لا يحزن قلبه مما يرى ويسمع مما لا يتفق وهدي المصطفى محمد ﷺ.

ولقد بث الشاعر أيوب صديق هذه المشاعر التي فاضت بها نفسه في قصيدة طويلة أنشد بعضاً منها في ليلة شعرية أقيمت بأكاديمية الملك فهد في لندن.

والقصيدة في شكلها ومضمونها أكثر من رائعة إذ جاءت على هيئة فصول ذات أهداف إسلامية سامية. فمنها ما هو رد على أقوال المضلين الذين يطعنون في الإسلام ويشككون في صلاحيته لإدارة شؤون المجتمع

الإنساني. ومنها ما يشيد بمنهج الإسلام الذي كان له الفضل في ترسية قواعد الحضارة والتمدن.. ومنها ما يترجم به شعوره واستياءه من البقاء بين ظهراني أولئك الكفرة الإباحيين. وهذا هو ما سأقتطف بعضاً منه. إذ يقول:

فنحن بظهراني أناس كأنهم
سوائم في صيف تروم المراعيا

خلاقهمو في العرى والخمر والخنى
رعابدهم جهراً يجيز المعاصيا

جياع طباع في نفوس لئيمة
تفوق بما تأتي الوحوش الضواريا

وليس لهم دين من اللؤم رادع
وما عرفوا خلقاً عن السوء ناهيا

أقيم غريباً فيهمو لست منهمو
علي كما يقضى المقام وماليا

سأصبر حتى يأذن الله لم يخب
رجا بقضاء اللّه من كان راضيا

وإن منىٰ نفسي مقام بطيبة
أجاور ما بقيت هناك حياتيا

لعلي مبعوث مع خير مرسل
فإني ذو ذنب وأخشى معاديا

ولقد قرأت هذه القصيدة في العدد ٥٤١٠ من جريدة الشرق الأوسط الصادر يوم الاثنين ٢٠/٩/١٩٩٣م.

○○○○○

قوس الرحمة. لا قوس قزح

كنا ونحن صغار، إذا رأينا الشمس خلال المطر وقد شكلت أشعتها ما يشبه الخط المقوس المتعدد الألوان، إثر تمايز السحاب نقول لذلك الخط ـ قوس قزح ـ فينهرنا الكبار ويقولون لنا: لا تسموا هذا قوس قزح.. سموه ـ قوس الرحمة ـ أو قوس الله ـ بل إنهم يقسون على من يسمعونه يقول هذا قوس قزح ـ ولم يعلل الكثير منهم الأسباب التي جعلته ينهانا عن تسمية ذلك الخط بقوس قزح.

وواقع الحال أن النهي عن تسميته بقوس قزح قد جاء بناء على أن قزح اسم من أسماء الشيطان فنهي عن أن يسمى المطر الذي تعكسه أشعة الشمس فيشكل ذلك القوس باسم من أسماء الشيطان لأن المطر رحمة من الله وغيث يغيث به الله خلقه.

أما القوس الذي شبه به ذلك الخط الذي ينعطف في السماء عند انهمار المطر فهو جزء من أداة سلاح قديم، وهو معروف قال ابن منظور في لسان العرب: القوس معروفة عجمية وعربية، ويذكر ويؤنث، فمن أنث قال في تصغيرها قويسة ومن ذكر قال: قويس، والجمع أقواس، وأقوس وأقياس، وقياس، وقِس وقُسي. والقوس من أبراج السماء الاثني عشر.. ـ وقد استعير فشبه بأشياء كثيرة: أنا ذاكر إن شاء الله بعضاً منها في موضوع لاحق لهذا.

ولقد ذكر الشعراء القوس في أشعارهم وتناولوه لأغراض تشبيهية كثيرة. فممن ذكروا القوس الشاعر العراقي المعاصر يحيى السماوي حيث يقول من جملة قصيدة له:

مُعَبّدٌ بالضنى والجمر درب غدي
مشيته والهدى سهمي وأقواسي

ويقول الشاعر المهجري إيليا أبو ماضي:

إن الأُلى قد كنت أرمي دونهم
غلّوا يدي وحطموا أقواسي

واستبدلوا سيفي الجراز بأسيف
خشب وباعوا عسجدي بنحاس

ويقول أبو العلاء المعري:

عجباً لنا ولمن مضى أقدامنا
يمشين فوق جسومهم والأرؤس

ولسوف يفعله بنا من بعدنا
إن المنون سهامها في الأقؤس

والأقؤس: القسي. الواحدة قوس.

ويقول الشاعر عبد الله بن سليم الأزدي واصفاً ما قطعه على ناقته الشملة من الفيافي والقفار حتى أنهكها طول السير فضعفت وصارت كالقوس:

فتعدّ عنها إذ نأت بشملة
حرف كعود القوس غير ضروس

ويقول الشاعر أحمد شوقي يصف زوارقاً تنساب في الماء بفعل المجاديف:

وإن هو جدَّ في الماء انسيابا
فكل طريقه وقر وقوس

حملن اللؤلؤ المنثور عِينا
كما حملت حباب الراح كأس

من معاني لفظة ـ القوس ـ!

والقوس المعروفة هو ذلك العود المحنيّ. والمتخذ أداة يطلق من خلالها السهم المعروف وذلك في حالة القتال أو الصيد أو ما إلى ذلك في الزمن السابق.

وقد اشتمل هذا الاسم ـ القوس ـ على أكثر من معنى حيث استعير للتعريف بكثير من الأشياء من حيث وجه الشبه. وخاصة التي في حالتها الطبيعية أنحاء يشبهه.

ولقد أشار إلى تلك الاستعارات صاحب لسان العرب. فقال بعد أن عرف القوس تعريفاً لغوياً سبق أن عقدت له موضوعاً تقدم في هذا الجزء تحت عنوان «قوس الرحمة.. لا قوس قزح»: وربما سموا الذراع قوساً.. وقوس قزح الخط المنعطف في السماء على شكل القوس.. وقوس الرجل ما انحنى من ظهره.. وشيخ أقوس محني الظهر، وقد قوس الشيخ تقويساً أي انحنى، واستقوس مثله، وتقوّس ظهره. قال امرؤ القيس:

أراهن لا يحببن من قلّ ماله
ولا من رأين الشيب فيه وقوّسا

واستعار القوسَ بعض الرجاز لليوم فقال:

إني إذا وجه الشريب نكسا
وأحن يومُ الورد أجْناً أقْوَسا
أوصِي بأولى أبلي أن تحبسا

وحاجب مُقَوّس على التشبيه بالقوس، ونؤى مستقوس، إذا صار مثل القوس ونحو ذلك مما يعطف انعطاف القوس.. والقوس: القليل من التمر يبقى في أسفل الجلّة. وقيل الكتلة من التمر والقوس بضم القاف: رأس صومعة الراهب، وقيل هم الراهب بعينه، والقوس بيت الصائد، والقوس زجر الكلب إذا خسأته قلت له: قُوسْ قُوسْ.. وقَوْقَس، إذا أشكى الكلب، والقوس الزمان الصعب قال: زمان أقْوَس، وقَوِس، قُوسيّ إذا كان صعباً، والأقوس من الرجل: المشرف كالإطار. قال الراجز:

أثْنى ثِناءً من بعيد المخْدِس

مشهورةٌ تجتاز جوز الأقوس

أي تقطع وسط الرمل، وجوز كل شيء وسطه.. - والقوس برج في السماء.. ويقال ليل أقوس أي شديد الظلمة.. وقوست السحابة: تفجرت.. - ويروى أن الأرنب قالت: لا يدّريني إلّا الأجْنَى الأقوس، الذي يَبْدُرُني ولا ييأسُ. - ولا يدّريني: أي لا يختْلُني، والأجْنَي الأقوس: الممارسُ الداهية من الرجال. يقال: إنه لأجْنَى أقوسُ إذا كان كذلك. ويقال: أحوى أقوس: يراد بالأحوى الألْوَى، وحويتُ ولويتُ واحد. وأنشد بن الهيثم:

ولا يزال وهو اجْنَى أقْوَسُ

يأكل أو يحسو دماً ويلحس

وفيه - أي لسان العرب - بحث طويل في القوس، ومعان كثيرة غير ما ذكرته فيما تقدم.

○○○○○

قوس الحاجب

في موضوع تقدم عنوانه «قوس الرحمة، لا قوس قزح» ذكرت بعض الأقوال المتعلقة بالقوس المعروف. وأشرت إلى سبب النهي عن تسمية الخط الذي يظهر من خلال الشمس أثناء انهمار المطر بقوس قزح.. وأشرت إلى أن القوس المعروف كآلة للقتال والصيد قد استعير من حيث الشكل ليشبّه به كثير من الأشياء، ونقلت جزء لا بأس به مما ذكره ابن منظور في معجمه «لسان العرب».

وفي هذا الموضوع أقف على واحد منها لأصطحب شاعراً واحداً أراه قد اشتاق لتشبيه حاجب العين في بعض تغزله بالقوس.. وهو الشاعر فتيان الشاغوري. واسمه أبو محمد فتيان بن على جمال الدين الأسدي المولود عام ٥٣٠هـ والمتوفى عام ٦١٥هـ حيث يقول من جملة قصيدة له:

ويـصـمـي قـوس حـاجـبـه بـنَبْـلِ الـلـ
واحـــظ عـــاشـــقـيـــه ولـــم يُـــوَلُّـــوا

ويقول أيضاً من قصيدة أخرى:

يـــرمـــي عـــن قـــوس حـــاجـــبـــيـــه
مـــن لـــحـــظ الـــطـــرف بـــالـــنـــبـــال

ويقول أيضاً من جملة أبيات قصيدة امتدح بها الملك ناصر الدنيا والدين أبا المعالي محمد بن أبكر أيوب:



وعن قوس حاجبه فُوِّقَتْ
سهام اللواحظ للنّاضل[1]
وأجفانه مشهرات ظُباً
قواطع كالقدر النازل
عليَّ جنى ما جنى ردفه الثـ
ـقيلُ على خصره الناحل

ويقول أيضاً من قصيدة أخرى:

كأن اللّه جمع فيه لمّا
براه جميع أجزاء الجمال
ترى قوساً بحاجبه وراشتْ
لواحظهُ سهاماً بالنضال[2]

ويقول من قصيدة أخرى:

عن قوس حاجبها رمت لمّا رنت
قلبي بلحظٍ سَهْمُهُ ما أقتله

وله أكثر من ذلك في قوس الحاجب، وقد اكتفيت بنقل ما جاء في قصائده المقفاة بحرف «اللام» فقط.

○○○○○

---

(١) الناضل: الرامي.

(٢) راش السهم: ألصق به الريش. وراش الصديق أطعمه.

ما الشعر المرسل كالشعر المنثور أو الحر!!

يزعم بعضهم أنه ناقد من الدرجة الأولى حينما يتولى الحديث عن قضية أدبية فيظهر بمظهر تحذلقي مقصور على نمط واحد من العبارات والكلمات والألفاظ. لا يخرج عنه حينما يضمه مجلس أدبي.. وإذا ما جرأ على الخروج في تناقده فإنه يقع في أمور تتجاوز شروحات مفاهيمها ما في جعبته من الألفاظ المتسمة بالنقد. فيقع في مأزق بين النقاد الحقيقيين. ويصبح موضع هزء وسخرية.

وحول هذا الموضوع أذكر أنه ضمني مجلس أدبي كان الحديث فيه عن الشعر المنثور أو الشعر الحر.. فكانت سيوف النقاد تحرذن... ذلك الشعر الدخيل الذي ما هو إلّا محاولة من أصحابه لطمس مميزات الشعر العربي الفصيح المقفى ودفنه تحت ركام ذلك الكلام الذي ليس بالنثر ولا بالشعر. فأراد أحدهم أن يشارك مشاركة يظهر فيها تأييده لموقفهم فأخذ يتحدث عن تاريخ الشعر الحر ومن أين أتى. لكنه أحس بأنه كان يعيد طرحاً قد سبق إليه. وأنه من يأت بمناقشة موضوعية جديدة في سياق حديثه. فقال: وكذلك الشعر المرسل فهو صنو الحر، وأنه واحد لا يتفق والشعر العربي الأصيل، ولا يتصف بصفته، ويختلف عنه في طابعه، وأنه يجب علينا محاربته ورفضه.

ـ قلت: يا أخي إن الشعر المرسل ليس صنواً للشعر المنثور أو الحر، وإنما هو صنو النظم الذي لا يلتزم بوحدة القافية، ويبعد كل البعد عن مفهوم الشعر المنثور، فهو شعر مقفى، وقصيدته تقوم على



الوجه المطلوب من حيث عمودية الشعر الأصيل ووحدة البناء واتساق موسيقى الوزن والتفعيلات في جميع أبياتها، إلّا أن القافية لم تكن موحدة في جميع أبيات القصيدة. ولذا سمي هذا النوع من الشعر مرسلاً أي أن قافيته مطلقة وغير مقيدة بحرف معين من حروف الهجاء. وهذا الاسم «المرسل» لا يتفق مع مفهوم المنثور أو الحر.

وختاماً لهذا التنويه أرى أنه من المناسب أن آتي بشاهد أحسم به هذه المغالطة.. فهذه أبيات من قصيدة للشاعر عبد الرحمٰن محمد شكري عياد المولود عام ١٨٨٦م والمتوفى عام ١٩٥٨م فيها من الاستدلال على حالة الشعر المرسل ما يكفي:

خليلي والإخاء إلى جفاء
إذا لم يغذه الشوق الصحيح

شكوت إلى الزمان بني إخائي
فجاء بك الزمان كما أريد

أراني قد ظفرت بذي وفاء
له خلق يضيق عن الرياء

يؤم بي العلاء أخو وجيف
وتنبت فيّ أجنحة النسور

تقبل طرفة لك من خليل
وقد يهدي الصديق إلى الصديق

فإن أك محسناً فلرب غرّ
أصاب الفضل في المحض اللباب

وإن أك مخطئاً فالفضل يؤتى
من الخطأ المبين عن الصواب

لـعـلـك واحـد عـذراً صـريـحـاً
وإذا عـجـز تـعـرض لـلـتـهـدي[1]

والقصيدة طويلة جداً فهي تبلغ ٩١ بيتاً وموجودة في الجزء الأول من ديوان عبد الرحمٰن شكري «ضوء الفجر».

OOOOO

(١) التهدي تلمس الإصابة والاهتداء.

تأبين الرفاعي نثراً وشعراً!!

ولما مات الأديب والكاتب والشاعر السعودي عبد العزيز الرفاعي، بادر الكثير من الكتاب والشعراء إلى تأبينه بعبارات مختصرة تنم عن الأسى والحزن العميق.. من ذلك ما قاله الدكتور عبد المحسن بن فراج القحطاني: «ماذا أقول في عبد العزيز الرفاعي وهو من الشخصيات التي نقشت اسمها بهدوء واتزان في عالم الأدب.. وكان طوال رحلته العامرة بالانجازات بعيداً عن المشاحنات.. ورفع نفسه عن الانزلاق في الصراعات الجانبية والتي تبعد عن المنحنى العلمي».

وقول الشاعر السعودي الكبير محمد حسن فقي: «إن عبد العزيز الرفاعي يرحمه الله علم من أعلام هذا البلد الطيب. علم ثقافي شامخ. وعلم أخلاقي متطاول الرفعة ومضرب المثل.. كان كما يعرفه عارفوه صديقاً لجميع الناس. بالغ الرقة والطيبة والدماثة عظيم الإيناس. وإثارة في الأدب. وفي الخلق منقطعة النظير.. رحمك الله يا أيها الرجل العلم الذي وقع عليه الاختيار السامي ليكون عضواً من أعضاء مجلس الشورى الذي يضم في جوانبه شخصيات من ألمع شخصيات هذا البلد، وأكثرها اقتداراً وأهلية ومكانة وخلقاً».

وقول الأستاذ سعيد السريحي: «والأستاذ عبد العزيز الرفاعي لم يكن أديباً فحسب فنحزن عليه حزننا على الأدباء.. ولم يكن ناشراً فحسب فنحزن عليه حزننا على ناشر همه نشر الثقافة... ولم يكن إدارياً فنحزن عليه حزننا على إداري تدرج به المقام حتى أصبح عضواً



في أول مجلس للشورى لدينا، لم يكن واحداً من هؤلاء فقط، كان هؤلاء جميعاً، وحزننا عليه بحجم الفراغ الذي يتركه وراءه.

أما الشعراء فلم يكونوا أقل تأثراً من الناثرين، فقد رثوه بالأشعار رثاءً محزناً.. أذكر منهم في هذه العجالة الشاعر السعودي عبد الغني قستي الذي رثاه بقصيدة منها قوله:

مضى الكوكب الوضاء عبر المدى يسري
فأين انتهى مسراه في رحلة العمر

وكيف طوى هذا الزمان بلجة
فصولاً من الحب المضمخ بالعطر

وخلّف للدنيا نهاية قصة
رفاعية المغزى عزيزية النصر

تحدث عنها كل غاد ورائح
أحاديث شتى ذات بوح من الفخر

حنانيك يا عبد العزيز فإننا
عرفناك صنواً للبشاشة والبشر

عرفناك في دنيا الثقافة قمة
ريادية بلْجاء مجلوّة الصدر

فقد شدت للأجيال دار ثقافة
تدعمها بالجهد.. بالمال. بالفكر

ومكتبة شبت عن الطوق وانبرت
تنافس شتى المكتبات بما يثري

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ٢٣ بيتاً وقد نشرتها جريدة البلاد في عددها ١٠٦٧٦ الأربعاء ١٣ جمادى الآخرة ١٤١٤هـ.

أثر نبأ وفاة الرفاعي

وإذا وافت المنية أحد الأعيان أو الشخصيات البارزة التي يشار إليها بالبنان فإن دوي صوت النبأ يأخذ أبعاداً في المجتمع الذي يعيش في وسطه ذلك المتوفى.. وبالتالي يكون له تأثير في النفوس.

وموت الكاتب والأديب والشاعر الشيخ عبد العزيز أحمد الرفاعي كان له صدى مفزع ومحزن في الوسط الأدبي خاصة وفي المجتمع السعودي عامة.. فحينما تناقلت وسائل الإعلام نبأ وفاته في يوم الخميس ٢٣ ربيع أول عام ١٤١٤هـ بمدينة جدة لهجت الألسن بالدعاء له والترحم عليه. وتسابقت أقلام معارفه وزملائه وأصدقائه، ومحبيه في ذكر مناقبه وحميد خصاله. نثراً وشعراً في عبارات موجزة، انفرد بنشر بعضها جريدة الرياض في عددها ٩٢٠٩ يوم الجمعة ٢٤ ربيع أول عام ١٤١٤هـ وكان من بين أصحاب تلك الأقلام الدكتور محمد السعيد الخطراوي الذي قال: «يعتبر الأستاذ عبد العزيز الرفاعي من الأدباء الرواد القلائل الذين استمروا طوال حياتهم قادرين على العطاء والمشاركات في كل مناسبة أدبية أو فكرية من خلال قنوات عديدة شملت الكتاب والصحيفة والإذاعة. كما شملت الندوات والمحاضرات، واتسمت في جميع ذلك بالموضوعية واتجهت إلى لون من الشمول في الرؤية بحيث تجمع على صعيدها الماضي والحاضر».

أما الدكتور عالي القرشي فقد قال: «الأستاذ عبد العزيز الرفاعي رحمه الله من أولئك الرجال الذين تجلى في فعلهم الثقافي تجاوز الآنية والذاتية فهو ممن تنبه إلى ضرورة الإعلام الواعي بما لدينا من فكر

وثقافة.. كان حلقة وصل بين الأدب والأدباء داخل المملكة وخارجها عبر اللقاءات الأدبية في داره وخلال رحلاته وعبر المكاتبات والمراسلات إلى المؤسسة الأدبية. وكان يعمل على إشاعة المعرفة الفكرية».

أما الشعراء فكان من بينهم الشاعر السعودي عبد الرحمٰن العبد الكريم الذي رثاه بقصيدة.. أقتطف منها قوله:

نُزِفتْ أعيني بدمع بُداد
حسرةً من تخرم الأجواد

يا لهولي بما سمعتُ وقد جئت
إلى منزلي مقال المنادي

إن عبد العزيز مات فأجهشت
بكاءً لحرقتي وافتقادي

يا لهولي من فقد شهم كريم
ماجد حاذق ببذل الأيادي

وافتقادي من لا يكل اقتناصا
للمعالي في قمة الأمجاد

عبشمي الصباح بل حاتميّ
لا يجارى في جوده الوقاد

إنما أنت مذ نشأت مثال
للتباهي من جملة النقاد

سوف تبقى ذكراك في الساح نبـ
راساً مضيئاً في المرتقى والوهاد

والقصيدة طويلة فهي تبلغ ٢٤ بيتاً وقد نشرتها جريدة الرياض في عددها ٩٢١٢ يوم الاثنين ٢٧ ربيع الأول عام ١٤١٤هـ.

يوم مات الرفاعي ذكروه بما هو أهل له!!

لقد مات الشيخ عبد العزيز أحمد الرفاعي يوم الخميس الموافق ٢٣ ربيع أول عام ١٤١٤هـ فذكره الناس بما هو أهل له.

ومن بعض الذين سجلوا خواطرهم الحزينة على موته، الأديب حسين عرب حيث قال: «يعد الفقيد عبد العزيز الرفاعي أديباً متكاملاً وعصامياً، وهو خسارة كبرى للمثقفين والأدباء ومجتمع المملكة، فلقد كان الرفاعي متميزاً في سلوكه الاجتماعي وعلاقاته بالناس، وكان يرحمه الله ـ ذا أخلاق عالية ونوازع إنسانية.. وكان سهل الطبائع مجاملاً عن قناعة وحسن قصد».

ومنهم الأستاذ عيسى رديف الشماخي الذي قال: للرفاعي مساهماته ومواقفه الإنسانية التي لا تخفى على أحد. وله أفكاره التي أثرت في حياتنا ومسيرتنا الثقافية أثراً ملموساً، وإنه لشيء محزن حقاً أن نرى الكواكب تغيب عنا كوكباً تلو كوكب».

ومنهم عبد الله عبد الجبار الذي قال: عبد العزيز كان إنسانية عالية، مرموقة لا يمارى فيها أي إنسان.. ولذا فإن الحزن عليه حزن شامل لا يقتصر على ذوي قرباه ولا أصهاره وأرحامه.. إنما يشمل كل إنسان التقى بعبد العزيز في حياته.. غمره بعطفه وإنسانيته، وبروحه اللطيفة المرحة.

ومنهم السيد فؤاد أمين حمدي الذي قال: لقد غدا الأستاذ عبد العزيز الرفاعي رحمه الله علماً بارزاً من أعلام الأدب في هذه المملكة... إنه رفاعي بحق عاش طيلة عمره في رفعة تامة.. رفعة في الخلق متسامية، رفعة في مظهره.. رفعة في صداقاته وعلاقاته، رفعة



سما بها فوق كل الترهات.. كل من يعرفه لا بد أن يحترمه تقديراً لشخصيته، ولأدبه، ولثقافته».

ومنهم الشاعر العراقي المقيم بالمملكة يحيى السماوي الذي رثاه بقصيدة طويلة منها قوله:

يرثيك - قبل الناطقين كتابُ
والمشكلان الدار والأطياب

تعيا حروفي. وهي بعد فتية
فيسير بي نحو السكوت ركاب

كبتِ الجفون على نوافذ مقلتي
وتعثرت بدموعها الأهداب

ومشى على المرسي لهيب فجيعتي
فإذا رمادي خيمة وثياب

حدّقتُ لأصحبي بحضن سفينتي
قربى ومالي نحوهم أسباب

عاتبت أحداقي. وحين نهرتها
وامتد بيني والديار عتاب

قالت أدت الطين ينفض ماءه
لا غرو - يشتاق التراب تراب

تاق الحبيب إلى - الحبيب - وراعة[1]
إن الهوى بعد الأحبة صائب

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ٥٦ بيتاً وأنها في العدد ١٠٨٥ من جريدة الندوة يوم الأحد ١٧ ربيع الثاني عام ١٤١٤هـ.

---

(١) الحبيب: حبيب الله النبي ﷺ وللرفاعي في حب النبي قصائد رائعة.

متى مات الرفاعي؟!!

قد تسأل عن تاريخ وفاة الأديب والشاعر والكاتب عبد العزيز أحمد الرفاعي أجيال قادمة، بل إنها ستسأل حتماً عندما تقرأ ما خلفه من أدب.

ولا أقول إنني أنا الذي سأجيب على تساؤلها، فالكتّاب والأدباء والشعراء الذين سطروا رثاءه بأحرف تنطق بدمع الحزن على وفاته قد حرروا تاريخ وفاته أثناء ما كتبوه من تأبينات لفقده.

ولكن. ولأخذي بمبدأ الكتابة عن وفيات الأعيان أثناء تأليفي هذا الكتاب فإنني بذلك أصبح واحداً من الذين اهتموا بذكر تاريخ وفاة الرفاعي يرحمه الله كواحد من وفيات الأعيان البارزين.. وبنقل جزء من الشعور المحزن على وفاته فأقول: إن الشيخ عبد العزيز أحمد الرفاعي توفي في الساعة السادسة من صباح يوم الخميس ٢٣ ربيع الأول عام ١٤١٤هـ الموافق ٩ سبتمبر عام ١٩٩٣م.

وأقيمت الصلاة عليه بعد صلاة الظهر من اليوم نفسه في المسجد الحرام ودفن في مقابر المعلاة بمكة المكرمة.. وقد كانت وفاته بعد معاناة طويلة مع المرض. وقد سافر بقصد العلاج إلى الولايات المتحدة الأمريكية وإلى ألمانيا ثم عاد إلى المملكة والمرض ملازم له. فأدخل المستشفى التخصصي بالرياض لإكمال العجلاج به فوافاه الأجل المحتوم في ذلك المستشفى.

والحقيقة أنني ما قرأت في الصحف والمجلات تفجعاً على ميت من الأعيان مثلما قرأته من تفجع وحزن على موت الرفاعي يرحمه الله..

وسأذكر طرفاً مما كتب في ذلك تحت عناوين تلي هذه العجالة إن شاء الله.

ومن الشعراء الذين بادروا برثائه الشاعر أحمد سالم باعطب حيث رثاه بقصيدة منها قوله:

جئت والقوم يعزون وحزني يغتلي

ومكاني لم يعد كالأمس يهدي الحب لي

قلت يا نفس انسجي ثوب حداد وأغزلي

أنا أصبحت يتيماً في رحاب المخفل

ليس لي أم تواسيني ولا والد لي

كيف أغفو بين أطياب الأماني كيف لي

كيف أشدو ولساني بأنني يقتلى

كيف أمشي ثابت الخطو بروح أعزل

والقصيدة طويلة فهي تبلغ ٤٥ بيتاً نشرتها جريدة الرياض في عددها ٩٢١٣ يوم الثلاثاء ٢٨ ربيع أول عام ١٤١٤هـ.

○ ○ ○ ○ ○

يوم الخميس... يوم محبب لنفس الرفاعي!!

وحينما أقول إن يوم الخميس من كل أسبوع. هو يوم محبب لدى الشيخ عبد العزيز أحمد الرفاعي، فإن ذلك مجرد استقراء ليس إلّا... أما كيف كان استقرائي محبة الرفاعي ليوم الخميس، أو على أي قرينة بنيت الاستقراء فلأنه كان رحمه الله يفتح باب داره على مصراعيه كل يوم خميس لسائر الناس ومختلف طبقات الأدباء والشعراء، وأهل العلم والثقافة، حتى أصبح يوم ندوة أدبية وثقافية تقام في بيته الذي عد بسببها، وبلغة الأدب في عصرنا ـ صالوناً ـ خميسياً كصوالين الرعيل الأول من أدباء عصرنا أمثال صالون. عباس محمود العقاد، وطه حسين، ومي زيادة وغيرهم من كبار الأدباء الذين حرصوا على أن يفيدوا، ويستفيدوا من فتح تلك الصالونات.

وقد استمرت تلك الندوة الأسبوعية في دار الرفاعي، والتي عرفت بالخميسية قرابة ثلث قرن من الزمن منها ثلاث وعشرين سنة في مدينة الرياض كانت عابقة ببحث الموضوعات الأدبية واللغوية والثقافية والاجتماعية وجانب من نقد الشعر وإنشاده ـ وما كان لي شرف الحضور إلا مرة واحدة قبل انتقاله من الرياض فكان إعجابي بها يفوق كل إعجاب وكان حضوري تطفلاً وليس بناء على دعوة موجهة لي.

ولقد صادفت محبة يوم الخميس في نفس الرفاعي أن توفي يوم الخميس في الساعة السادسة من صباحه لثلاث وعشرين خلون من ربيع الأول عام ١٤١٤هـ. وربما أنه رحمه الله كان يتمنى على الله أن تكون وفاته في يوم خميس فكان له ذلك.

وبعد فإنني أرى أن أختم هذا الاستقراء الخميسي بأبيات من قصيدة رثائية رثاه بها الأستاذ منصور عبد الله العمر. وهي قوله:

طال الترقب أن يجيء الموعد
وعلى الأماني يستطاب تجلد

وغدا الخميس كأي يوم آخر
ومساؤه ما عاد فيه توقد

وقوله: ـ

أستاذ.. ترحل والليالي عتمة
من للدجنة والظلام يبدد

من للأصالة أن تراد حياضها
إن أجهزت كرة تكاثر ورد

أستاذ.. ترحل والزمان رداءه
والزيف صار مذاهباً تتعدد

أستاذ.. ترحل والركاب حداؤها
رجع تقطع.. لات حين مردد

أستاذ.. ترحل والخميس مساؤه
ظلم.. ومسرى مدلهم أسود

إنا يتامى.. إذ رحلت مودعاً
يتم الكبار.. مواجع تتجدد

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ٢٢ بيتاً.

○ ○ ○ ○ ○

جانب من السيرة الذاتية لعبد العزيز الرفاعي

إنه لمن الواجب علينا أن نترجم لأدبائنا وشعرائنا وجميع مفكرينا ترجمة تبقى في ذاكرة الزمن، ولكون الشيخ عبد العزيز أحمد الرفاعي يعدّ واحداً من الذين يجب أن نترجم لهم ولو بشيء من الاختصار. لأن الوقوف على مثل سيرة حياة الرفاعي يحتاج إلى مؤلف ضخم لا إلى سطور قليلة محصورة في موضوع كهذا. فهي مليئة بالمواقف الأدبية التي تنم عن صفاء الفكر وحسن الأدب وسلامة الطوية واستقامة الخلق، وحب الخير للناس، والارتقاء بالذات عن الأدناس.

وبقراءة بطاقته الشخصية نعرف أنه ولد في أملج[(١)] عام ١٣٤٢هـ، وقيل: ١٣٤١هـ ونشأ في مكة المكرمة والتحق بالتعليم الحكومي المنظم عام ١٣٥٠هـ وتخرج في المعهد العلمي السعودي عام ١٣٦١هـ وعمل بعد تخرجه مدرساً بمدرسة العزيزية الابتدائية بمكة المكرمة، ثم موظفاً إدارياً في عديد من الإدارات لمدة أربعين عاماً منها مدير الإدارة السياسية في ديوان رئاسة مجلس الوزراء. وآخرها مستشاراً بالديوان الملكي.

وفي عام ١٣٨٤هـ كان مديراً عاماً لمؤسسة اليمامة الصحفية. ـ وفي عام ١٤٠٩هـ تم تعيينه عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة وعضو المجلس الأعلى للإعلام وفي يوم الجمعة ٣ ربيع الأول عام ١٤١٤هـ تم تعيينه عضواً في مجلس الشورى وكان قد تقاعد في غرة المحرم عام

---

(١) أملج: تقع على الشريط الساحلي للبحر الأحمر بين ينبع. والوجه وهي أحد موانئ المملكة العربية السعودية وتتبع إمارة تبوك إدارياً. وتقع أمامها جزيرة ـ حسان ـ الشهرة بالرمال الصالحة لصناعة الزجاج.



١٤٠٠هـ. وكان يكنى بأبي عمار وهو أكبر أولاده أما وفاته فكانت في الساعة السادسة من صباح يوم الخميس ٢٣ ربيع أول عام ١٤١٤هـ.

هذه نبذة قصيرة عن سيرته الذاتية. أما نشاطاته الثقافية التي أثرى بها المكتبة العربية فسأخصها بموضوع مستقل إن شاء الله... ـ ولعله من المناسب أن أختم هذه النبذة بأبيات من قصيدة رثاه بها الشاعر محمود عارف وهي:

إن يوم الخميس ميعاد ذكرى
لحياة مليئة بالعظات

وحياة الإنسان فيها كثير
من طريف الشؤون والذكريات

ما نسينا عبد العزيز الرفاعي
حين كان الرفيق في الرحلات

ما نسينا المتاع في «هونج كونج»
ومجالي «تايوان» في القاصيات

ورأينا الجمال في «سنغفورا»
مثلاً رائعاً من الملهمات

مات عبد العزيز.. والموت حق
كلنا سائر لحتم مواتي

فعزاء الصحبة وبنيه
وجميع الأصهار في الباقيات

وعزاء لنا جميعاً وهذي
سنة اللّه في شؤون الحياة

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ نحواً من ١٦ بيتاً نشرت في الأربعاء ملحق المدينة ٢٩ ربيع الأول سنة ١٤١٤هـ.

صاحب «السبعون»

و«السبعون» هو عنوان قصيدة قالها الأستاذ عبد العزيز الرفاعي قبل وفاته بأشهر معدودة وألقاها في الحفل الذي أقامه النادي الأدبي بجدة في ١٢ شوال عام ١٤١٣هـ تكريماً له. وحضره جمع غفير من رجال الفكر والأدب.. وقد عدّها ـ والمعني بذلك قصيدة ـ «السبعون ـ» بعض النقاد من عيون الشعر.

أما موضوعها فهو فيض من الأحاسيس الوجدانية التي حلق بها في سماء خياله عندما ناف على السبعين من عمره. فأطلق شاعريته ليرسم واقعاً هو حصيلة سبعين عاماً.. وليترجم بشيء من التواضع مسيرته الأدبية بأسلوب قلل فيه من قيمته. وهو والحق يقال فوق ذلك. فهو أرفع مكانة وأجل قيمة وقدراً في ميدان الأدب مما وصف به نفسه بقوله. منها:

إني لدى التعريف ربع مثقّف
صحب الكتاب فلم يخنه كتاب

هو في دمي عشق الطفولة والصبا
فهو الهوى واللحن والأحباب

أما مطلعها فهو قوله:

سبعون يا صحبي وجل مصاب
ولدى الشدائد تعرف الأصحاب

ويقال إنها هي آخر شعر قاله. وهو قول يقرب إلى الصحة



والصواب إذ لم يفصل بين إلقائها وموته إلا أشهر قليلة كما أسلفت حيث كانت وفاته يرحمه الله في ٢٣ ربيع الأول عام ١٤١٤هـ.

ولقد عارضها الشاعر معيض البخيتان من حيث الوزن والقافية بقصيدة رثاه بها رثاء فيه تفجع وحزن.. وقد استهلها بقوله:

حُمّ القضا فتهاوت الأسباب
يا شاعر «السبعين» مم تهاب

الموت حق والحقيقة أننا
متشاغلون معلقُ ومصاب

ثُكلت بفقدك أمة مرزوءة
للموت فيها جيئة وذهاب

ومنها قوله:

ما غاب إلّا ما وهبت من الثرى
أما العزيز فليس فيه غياب

يا شاعر «السبعين» فكرك ظاهر
وقرارك الأعلى دمٌ غلاب

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ٢١ بيتاً وقد نشرتها جريدة الندوة في عددها ١٠٥٦٦ السبت ٢٥ ربيع الأول عام ١٤١٤هـ.

○○○○○

الجانب التأليفي من نشاطات الرفاعي!!

والوقوف على جانب الصناعة الأدبية من نشاطات الأستاذ عبد العزيز أحمد الرفاعي رحمه الله قد يهم فئة كبيرة من القراء. ومن لهم شغف بقراءة سير أصحاب الأقلام والمفكرين والشعراء.. ولأن الرفاعي قد كان له نشاط في صنعة الأدب ومجال التأليف الذي أثرى به المكتبة العربية. فقد تسابقت الأقلام إبان تأبينه يرحمه الله في ذكر مآثره وما خلف من أعمال أدبية يشكر على ما بذله من جهد في إيجادها.

ومن القوائم التي اشتملت على ذكر أكثر مؤلفاته هذه القائمة:

١ ـ توثيق الارتباط بالتراث العربي طبع عام ١٤٠٨هـ «٢»: جبل طارق والعرب ـ طبع عام ١٤٠٢هـ «٣»: خمسة أيام في ماليزيا ـ طبع عام ١٤٠٣هـ «٤»: كعب بن مالك ـ طبع عام ١٣٩٧هـ «٥» أم عمارة الصحابية الباسلة ـ طبع عام ١٤٠٩هـ «٦» من عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب والموظفين ـ طبع عام ١٣٩٣ هـ «٧» الحج في الأدب العربي ـ طبع عام ١٤٠٦هـ. «٨»: ضرار بن الأزور الشاعر الصحابي الفارسي ـ طبع عام ١٣٩٧هـ «٩»: خولة بنت الأزور طبع عام ١٤٠٢هـ. «١٠»: أرطأة بنت سهية طبع عام ١٣٩٩هـ «١١»: زيد الخير ـ طبع عام ١٤٠٢هـ. «١٢»: الرسول ﷺ كأنك تراه (حديث أم معبد) طبع عام ١٤١١هـ. «١٣»: عبد الله بن عمرو بن أبي صبح المزني ـ طبع عام ١٤١١هـ «١٤». خارجة بن فليح المللي ـ طبع عام ١٤١١هـ «١٥» رحلة مع المكتبات ـ طبع عام ١٤١٣هـ «١٦»: رحلتي مع التأليف ـ طبع عام ١٤١٢هـ «١٧» ظلال ولا أغصان ديوان شعر طبع عام ١٤١٣هـ «١٨» أعلام علماء الإسلام ببناء المسجد الحرام «١٩» يوميات مئذنة مكية طبع

عام ١٤٠٠هـ «٢٠»: عناية الملك عبد العزيز بنشر الكتب ـ طبع عام ١٤٠٨هـ «٢١» ابن سيرين ـ ما زال تحت الطبع.. ـ وللرفاعي باع في ميدان الشعر لعل من عيون القصائد التي قالها قصيدته «السلام عليك» وهي مديح للنبي ﷺ.. أقطف من مقدمتها هذه الأبيات التي كلها اعتذار واعتراف بتقصيره عن مجاراة غيره. وذلك بقوله:

المبدعون ـ وكيف لي أن أبدعا
قطفوا الروائع لم أجد لي مطلعا

ضفروا لسُدّتك النجوم فزاحموا
فيها فما تركوا هنالك موضعا

ذهبوا بمدحك حيثما ذهب الهوى
فحسبتهم أهدوا إليك روائعا

ولقد ظننت بأنهم بلغوا الذرى
فإذا بمجدك لا يزال ممنعا

وإذا هم في السفح منك جميعهم
وأنا المهيض أتى لمدحك ظالعا

أتت الثريا بل مجرّات المدى
قد فقتهن جميعهن مطالعا

جاؤوك في الزمن البطيء فأسرعوا
وبرغم عصري ما أتيتك مسرعا

الحب يشفع إن حبوت مقصراً
ورجوت في الدارين لي أن يشفعا

والقصيدة طويلة فهي تبلغ ٤٢ بيتاً انتهي من نظمها في ٢٩ ربيع الأول سنة ١٤١٢هـ.

قالوا عن الرفاعي

والكتابة عن الشخصيات التي تكون المروءة وحسن الخلق وكرم الطبع من صفاتها لا تمل بل هي المتعة والغذاء النفيس للقلم.. ـ وعبد العزيز أحمد الرفاعي ليس إلّا من ذلك الصنف ولهذا فجر رحيله من الدنيا مشاعر معارفه فأخذوا يبوحون بشيء من مناقبه.. فعلى سبيل المثال قال الأستاذ يوسف منهوري: كان الرفاعي رجلاً فاضلاً أحب الجميع فأحبوه. وكان عف اللسان فاحترمه الجميع.. وقال اللواء متقاعد جميل محمد الميمان: إن وفاة الرفاعي خسارة كبيرة جداً حيث كان صاحب حركة أدبية متميزة. وصاحب عطاء مشرق طوال حياته وكان صاحب كلمة أدبية نقية.

وقال أسامة أحمد السباعي: كان عبد العزيز صرحاً شامخاً فهوى. وكان نجماً متألقاً فأفل وهو إن شئته عفيفاً تراه كذلك في لسانه وقلمه ونفسه وفؤاده، وهو إن أردته مهذباً تجده في حديثه وفي سلوكه.

وقال معالي الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله السالم: كان الرفاعي كريماً بشوشاً يتمتع برحابة الصدر وكرم النفس وسعة الأفق، والتسامي فوق الخلافات حتى لو سمع أو قرأ كلمات استفزازية فإنه لا يخرج عن وقاره.

وقال الأديب عبد الرحمٰن المعمر: وعندما أريد أن أتحدث عن الرفاعي فسوف أجد صعوبة فلن أستطيع إعطاءه حقه فكما يقال: حدث عن البحر ولا حرج، ومثله نادر، فقد جمع عدة مزايا منها الخلق والوفاء والكرم والثقافة الواسعة.



وقال الأستاذ عبد الله القرعاوي: ومن المميزات التي امتاز بها فقيد الأدب والصحافة والأخلاق الأستاذ عبد العزيز الرفاعي: إنه كان محباً للناس يحيط به أصدقاء كثيرون، وشخصيات من كل الطبقات.

وقال الدكتور حسن الهويمل: للإنسان ميتتان: ميتة فعل وميتة جسم وله حياتان: حياة جسم وحياة ذكر.. والأذكياء هم الذين يحافظون على حياة الفعل وحياة الذكر.. والرفاعي رحمه الله ـ كان حياً إلى آخر لحظة من عمره الجسمي وسيظل حياً بذكره الجميل وبإنجازاته الباقية، وبفعله المتميز.. ولقد عرفته كاتباً ثَرَّ العطاء، ومتحدثاً طلق اللسان، ومؤلفاً دقيق الكلام، وناشراً ينفق جهده وماله في سبيل الصالح العالم.

ومن مساهمات الشعراء بأقوالهم الشعرية قول الشاعر محمد بن أحمد العربي من قصيدة له:

جيل من الرواد كالدوح مثمر
عشقوا المعالي. بالسنام استأثروا

سهروا الليالي ناذرين حياتهم
لبلوغ مجد في الورى يخضو ضر

نظموا بأعناق الزمان قصائداً
وقلائداً غراً مدى الدهر تسحر

وطلائع غرسوا الوفاء خمائلاً
فغدت سحائبها تسح وتمطر

حصدوا اللآلئ في مكامن لُجها
واستلهموها في البديع وصوروا

فرسان أقلام جهابذ فطنة
فلطالما أثروا البيان وسطروا



وإذا سئلت عن الرفاعي - إنه
علم من الأعلام. بل هو أكبر
عجم البلاغة والقريض فطو
عت لبنانه بنسابة تتخطر

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ثلاثة عشر بيتاً تقريباً.

○ ○ ○ ○ ○

الأوسمة الممنوحة للرفاعي

ولو لم يكن للأستاذ عبد العزيز الرفاعي يرحمه الله جهود ملموسة ذات إبداعات حققت أهدافاً ذات مساس بالفكر، والأدب، والثقافة، والمعرفة، لما منح أوسمة تعتبر بالإضافة إلى أنها رمز اعتباري، معياراً لنشاطاته التي هي وبلا شك ثمرة تجليات أفكاره وتفانيه في مجال اختصاصه.

وحيث أن الغرض من إيجاد هذا العنوان «الأوسمة الممنوحة للرفاعي» هو ذكر الأوسمة والنياشين لنستدل على أن نشاطاته كانت تقابل بالاحتفاء والتقدير الذي ترجم بعضه تلك الأوسمة والنياشين التي منها:

«١» وسام الاستحقاق الثقافي عام ١٩٧٠م من تونس «٢» درع الجامعة من جامعة الملك سعود بالرياض عام ١٤٠١هـ «٣» براءة تكريم الأدباء السعوديين مع ميدالية الاستحقاق عام ١٣٩٤هـ «٤» وثيقة التقدير الذهبية عام ١٩٨٢م من رابطة الأدب الحديث بالقاهرة «٥» شهادة تقدير عام ١٤٠٦ بمناسبة مرور ٤٠ عاماً على صدور مجلة التضامن الإسلامي - الحج سابقاً - «٦» درع النادي الأدبي بأبها عام ١٤١١هـ «٧» الزمالة الفخرية لرابطة الأدب الحديث بجمهورية مصر العربية «٨» وسام التكريم من قادة دول مجلس التعاون الخليجي في قمتهم العاشرة بمسقط في ٢٠ جمادى الأولى عام ١٤١٠هـ «٩» تكريم نادي جدة الأدبي له في شوال عام ١٤١٣هـ. وقد قال رحمه الله أثناء هذا التكريم: «لا أستطيع التعبير عما بداخلي في هذه اللحظة، ولا أنكر أنني حاولت أن يعفيني النادي من هذا التكريم لأن هناك من هو أحق منيّ بذلك.

تلك أوسمة مادية ومعنوية معاً، وقد لحقتها بعد موته أوسمة معنوية تمثلت في القصائد التي رثي بها والتي منها قصيدة الشاعر عبد الله محمد جبر.. منها قوله:

مثل عبد العزيز يفتقد
وعليه فلتدمع الكبدُ

الصدوق المقال عند ما يعد
والعفيف البيان حين ينتقد

الرفاعي رفعة واعتلاء
وسجايا لم يحوها العدد

صامت عندما الصمت يغني
عن مقال يحفه النكد

إن ذكرت الأديب قابلني
باحث في التراث يجتهد

ناثراً شاعراً أفاشين شتى
من علوم ماخانها الجلد

غيب القبر منك وجهاً بشوشاً
وفؤاداً ما شانه الحسد

ولساناً مهذباً عبقرياً
عن قبيح المقال يبتعد

والقصيدة أطول من ذلك فهي ١٣ بيتاً نشرتها جريدة الندوة في عددها ١٠٥٦٧ الأحد ٢٦ ربيع الأول عام ١٤١٤هـ.

○○○○○

«يا ليل الصب» في قلة الماء بالنزلة في جدة!!

والقصيدة التي تتوفر فيها جميع مقومات الشعر ومحسناته، وتتصف بسلاسة اللفظ وعذوبة الكلمات ووضوح المعنى، وجودة التعبير، وتماسك البناء الذي يقوم على صدق الإحساس، وتظهر عليه تجليات الشاعر ومقدرته على التلاعب بالألفاظ تلاعباً يسحر به لب القارئ... - هي تلك التي تأخذ مكان الصدارة بين فرائد القصائد وعصماواتها.

وقارئ تلك القصيدة يحس بحرارة المشاعر المتوهجة في جميع أبياتها، بل يكتشف أنها ممغنطة بحس شاعرها وذوقه الرفيع الذي يظهر في اختياره للمفردات التي يكون لها صدى ورنيناً يشنف آذان عشاق الشعر والشعراء معاً.

وموسيقى القصيدة التي تحمل تلك المواصفات تنسكب لا محالة في السمع وتنسرب إلى القلب فتهتز النفس طرباً واشتياقاً لما فيها من جمال الصورة، وجمال البديع الذي ليس للتكلف فيه أثر بقدر ما تظهر فيه مقدرة الشاعر على إحكام صنعة الشعر.

وبعض الشعراء الذين يميلون إلى المداعبة لا يغفلون عن ركوب معارضة مثل تلك القصيدة في مداعباتهم لاعتقادهم بأن أسلوب المعارضة لعيون القصائد يكون أشد وقعاً وتأثير في نفس من يداعبونه بها.

من ذلك مداعبة الشاعر على حباس علي القرني لمدير عام المياه بجدة المهندس محمد العفر حينما توقف أو شح تدفق الماء عبر شبكة المواسير بحي النزلة وغليل وأحياء أخرى مجاورة لهما بقصيدة تعد من القصائد التي عارضت قصيدة «يا ليل الصب» لأبي الحسن علي بن

عبد الغني القهري المقري القيرواني المتوفى بطنجة سنة ٤٨٨هـ. والتي مطلعها:

يا ليل الصب متى غده
أقيام الساعة موعده

يقول القرني في مداعبته للفعر. تلك المداعبة الممزوجة بالشكوى من قلة تدفق الماء في الحي الذي يسكنه.

يا فعر لقد شح الماء
أوجاء «النزلة» تفقده

لا يجري غير سويعات
فهناك أياد توصده

نادينا هل تسمعنا
الماء شحيح مورده

قد كان يأتي منتظما
في موعده نتعهده

واليوم محال أن يأتي
إلا تقطيراً نزهده

فاسمع يا فعر شكايتنا
نظم للماء مواعده

فالنزلة أكثر سكاناً
بل أقدم حي نعهده

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ أحد عشر بيتاً وقد قرأتها في جريدة المدينة العدد ٩٦٧١ يوم الأربعاء ٢٦ جمادى الأولى عام ١٤١٤هـ.

متعة اللقاء.. وعذاب الفراق

والذي يترجم صورة الفراق ترجمة حقيقية. هو ذلك الذي تم له اللقاء في زمن معين ولم يتشفّ من ذلك الذي كان يترقب لقاءه تشفياً كافياً حتى وجد نفسه مودعاً ـ بكسر الدال ـ أو مودعاً ـ بفتح الدال ـ لأن لحظة الفراق أزفت فألزمت المقيم بتوديع المرتحل.

ـ وساعة الفراق عند المتحابين.. وفي لغة العشاق لها معنيان: أحدهما انعقاد لحظة اللقاء الذي يسبق ساعة التوديع.. وهذا اللقاء الذي يتم في مثل تلك المناسبة لا يقاس بزمن. ولا يعوض بقيمة... ـ أما الآخر فهو ما يثير في النفس الحزن عندما يدير كل من المتحابين ظهره للآخر في اتجاه معاكس يخلف فراقاً يطول ولا يدع في النفس أمنية يجددها حلم باللقاء من حين إلى آخر.

ـ ومتعة اللقاء وعذاب الفراق ظاهرة تحل بكل المتحابين.. منها ما يتكرر.. وهذا يكون عامله السفر القريب.. ومنها ما يقل تكراره وإذا حدث فهو فراق أبدي. وهذا ينشأ عن عامل جفوة المكان.. أو الانتقال من الحياة.

ـ ولأصحاب الأقلام من ذوي الفكر تعبيرات مختلفة في رسم صورة متعة اللقاء، وعذاب الفراق، لكن أبلغ الصور التي ترسم هذه الحالة هي الصورة تأتي في قالب شعري، وذلك مثل قول البحتري، واسمه: الوليد بن عبيد الله البحتري المولود عام ٢٠٢هـ والمتوفى عام ٢٨٤هـ في مقطوعة له مكونة من أربعة أبيات:

مُتِّعا باللقاء عند الفراق

مُستجيرين بالبكا والعناق





كم أسرًا هَواهُما حذر البَيْـ
نِ وكم كاتما غليل اشتياق

فأطلَّ الفراق فاجتمعا فيـ
ـه فراقٌ أتاهما باتفاق

كيف أدعو على الفراق ببيْنٍ
وغداة الفراق كان التلاقي؟

وقوله في مثل ذلك في مقطوعة أخرى قوامها أربعة أبيات. هي:

بكيتُ من الفراق غداة ولّت
بنا بُزْلُ الجمال على الفراق[1]

فما رقأت دموعُ العين حتى
شفى نفسي الفراق من التلاقي

غداً تغدو مطايا السير منيّ
بشوق لايقيم على الرّفاق

واستبطي إلى بغداد سيري
ولو أنّي رحلتُ على البراق

○○○○○

(١) البزل: جمع بازل. يقال جمل بازل. وناقة بازل. وهو أقصى أسنان البعير سُميّ بازلاً من البزل. وهو الشق. ويقال للبعير بازلاً إذا استكمل السنة الثامنة وطعن في التاسعة. وفطر نابه.

حكم.. وصن

تسير إحدى الألعاب الورقية ـ والتي تعرف ـ بالبلوت ـ على أحد أمرين: إما على الحكم. وهو أن يكون الورق المتحد في لونه وتسلسل شكله هو المسيطر على جميع الأشكال الأربعة التي اتخذت لها أسماء متنوعة منها ـ الهاص ـ السبيت ـ الشيريا ـ الديمن ـ .. أو على الصن وفيه تكون القوة المسيطرة للأقوى من أشكال ألوان الورق الأربعة.

ولعبة البلوت لها أحكام وقوانين.. وهي لعبة مسلية وتعتمد على الذكاء والفطنة وممارسة لعبتها فيه تشغيل للذهن، وقد انتشر في زماننا هذا انتشاراً واسعاً وأصبحت خطراً يهدد بضياع الوقت وصرفه في مزاولة لعبها.

والبلوت كما نعرفه رباعي اللعب أي أن يتقابل فيه أربعة أشخاص كل اثنين فيه ينافسان معاً الاثنين الآخرين.. ـ ولمعرفة الرابح من الخاسر قواعد حسابية يتبارى اللاعبون في الحصول على ما يحقق الربح الذي يبلغ مجموع نقاطه في النهاية ١٥٢ نقطة الحاصل عليها هو الفريق الفائز. وتفصيل حسابات كل لعبة في الحكم أو الصن يطول، ولست هنا بصدد شرح هذه اللعبة الممتعة والملهية في نفس الوقت.. لأن الوقوف على طرق عدها وما يحصل من تغير في قيمة الأوراق بين اللعبة إذا كانت حكماً واللعبة إذا كانت صنا يحتاج إلى تفصيل مسهب... وما تقدم ما هو إلّا تمهيد للبحث عن معنى الحكم والصن في لعبها: فالحكم يعرف بطبيعة الحال ومن واقع مسماه ووفقاً لما تقدم شرحه.. أما الصن فهو مسماً لحالة لعبة أشرت إليها آنفاً. ولم أقف على معنى له عند لاعبيها ـ سوى قولهم إنه لعب بصمت.

وفي لسان العرب: الصَّنّ ـ بالفتح ـ زبيل كبير مثل السلة المطبقة يجعل فيها الطعام والخبز ـ وبالكسر ـ: بول الوبر يخثر للأدوية. والمصن بكسر الصاد: الساكت. أو الممتلئ غضباً.. وممن استخدم هذه اللفظة الشاعر البحتري، وذلك أثناء قصيدة هجا بها ابن أبي القماش المنجم الذي لم يصن جارية كانت له. فقال البحتري مخبراً عن حال تلك الجارية:

قد خبروها قيام شيخك في الحـ
ـمام فاستعبرت من الأسف

وأعلموها بأن كنيته
أبو قماش ـ الحشوش والكُنفه

وحدثوها بالدسْتبان وبالصَّن
فكادت تشفى على التلف

والدسْتبان ـ قيل: إنها لفظة فارسية مكونة من مقطعين ـ دست ـ و ـ بان ـ ومن معاني ـ دست ـ الخديعة ـ والذي يكون فيه الغلب في الشطرنج ـ تقول: الدست لي الدست عليّ. أما الصن فتقدم ذكره ومما جاء في هجاء البحتري لابن أبي قماش قوله:

وقد تبيّنت ذاك في الكمد ال
بادى عليها والواكف الذرف

وزُهدها في الدنو منك فما
تُعطيك إلا بالتعس والعُنُف

أنت كما قد علمتَ مضطرب ال
هيئة والقد ظاهر الحلف

والسن قد بينتْ فناءك في
شدق على ما ضِغيْكَ منخسف

سراق النعال

قال محدثي: ما أكثر ما سمعت في الآونة الأخيرة عن سرقات النعال وخاصة الجديد والثمين منها.. وهذه السرقات تحصل بل تمارس بالأصح في صلاة الجمعة في كثير من المساجد.. فسراق النعال يقومون أثناء تأدية الناس للصلاة بانتقاء النعال الجديدة فيأخذونها حال التسليم من الصلاة.

قال أحدهم: هذا من الصعب أن يخرج إنسان من المسجد وفي رجله نعل ويحمل في يده نعلاً!! قال: إن السارق يأتي بشروت نعال بالية فيتركها وينتعل ما يراه جديداً من نعال الناس. وهكذا في كل صلاة. أو في أغلب الصلوات.

قلت: إن سرقة النعال ليست بظاهرة جديدة لدى ضعفاء النفوس، بل هي ظاهرة عانى منها القدامى.. وأبنوا السراق عليها.. وأذكر من ذلك ما روي من أن الحافظ ابن عساكر واسمه القاسم بهاء الدين بن علي بن الحسين بن هبة الله المولود عام ٥٢٧هـ والمتوفى عام ٦٠٠هـ وهو ابن المحدث والمؤرخ الشهير ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق.. قد سأل الشاعر فتيان الشاغوري واسمه أبو محمد فتيان بن علي جمال الدين الأسدي النحوي المولود عام ٥٣٠هـ، والمتوفى عام ٦١٥هـ أن يصلي الجمعة خلف الدولعي إمام الجامع الأموي بدمشق ويأخذ عليه اللحن في الخطبة.. فمضى فتيان الشاغوري إلى الجامع الأموي.. وهناك خلع نعليه عند المدخل.. ودخل المسجد، ولما انتهت الصلاة لم يجد نعاله فخرج من المسجد حافياً.. وفي ذلك قال أبياتاً يصف

فيها امتثاله لأمر بهاء الدين وانتهاء أمره بسرقة نعاله من المسجد.. من تلك الأبيات قوله:

جئتُ أسعى إلى عَروبة حتى
صرتُ أُذناً للمنبر الأمويِّ[1]

جئتها ناعلاً ووليتُ عنها
حافياً غير ظافر بحَفِيِّ[2]

ما ظِننا بأن مقصورة الجا
مع مأوى لكل لصّ غوي

أوثقوا بالأقفال مصحف عثـ
ـمان فخوفي عليه غير خَفِيِّ

قال لي الحافظ الأجل بهاء الد
ين ذو العقل والمحيّا البهيِّ

امض واسمع وعد ولا تطوِعَنّي
نشر لحن في خطبة الدولعي[3]

قلتُ إذ عدتُ ما عثرت على لحـ
ـن جلّي ولا أتى بخفيّ

قال لي هذه الشهادة منها
قد رميتَ الحشا بداء دويّ

(١) العروبة: اسم يوم الجمعة.

(٢) الحفي: لمتلطف بك.

(٣) الدولعي: هو ضياء الدين بن عبد الملك بن زيد ـ ينتهي إلى ـ التغلبي الأرقمي. كان خطيب دمشق. والدولعية التي ينسب إليها هي قرية تقع إلى جوار الموصل. وقيل: إن الدولعي هو الذي تولى غسل صلاح الدين السلطان يوم وفاته.

بين الهجاء والمداعبة صلة!!

وإذا كان بين الهجاء والمداعبة صلة فلا بدّ من وقفة استجلائية نتبين من خلالها نوع الصلة التي تربط بينهما وصفة المداعبة التي تتميز عن الهجاء.

ـ فإذا كان الهجاء بعيداً في أسلوبه عن التفكير، ومجانباً في تعبيرهِ القذف المحرم وهتك الأعراض.. ومجرداً من الشتائم المقذعة ورمي التهم بالآثام، فإنه ربما يأخذ من التعريف صفة السخرية المعراة من أدب الأسلوب وأسلوب الأدب.

وإذا ما نصنف الهجاء رتب فإن بعضه ربما يقترب من المداعبة الثقيلة التي لا تخلو من الوخزات المؤلمة التي تحملها بعض الكلمات التي يجرأ الشاعر فيها على ملامسة صفة أو خلق ذميم نوعاً ما في صاحبه الذي تولى هجوه أو مداعبته إن صح تسميتها بالمداعبة وذلك كأن يصف ظاهر خلقية، أو أنانية أو انعدام نخوة، أو رداءة شعر أو ضعف قريحة، أو بذاءة لسان. وذلك مثل هجو الشاعر الشاغوري واسمه أبو محمد فتيان بن علي الأسدي النحوي المولود عام ٥٣٠هـ والمتوفى عام ٦١٥هـ لشاعر يعرف بابن الخيمي.. قيل: إن اسمه محمد بن عبد المنعم الأنصاري شهاب الدين الخيمي وأنه قد ولد بمصر عام ٦٠٢هـ ومات بها عام ٦٨٥هـ حينما قال فيه:

كلما حدثني ابن الخيمي
قلتُ هذا حدث ليس حديثاً
سمجُ الإنشاد غثٌ لفظة
فاتر الشعر يُرى فيه خنيثا



فُوْهُ كالمعدة ما مرّ بها
طيب إلّا أحالته خبيثا

لا تُبطرِم ويك إني عالم
بك يا قرد قديماً وحديثاً[1]

ومثل هجوه أيضاً لشاعر آخر يعرف بابن عصرون. قيل: إنه من الموصل وإنه استقر بدمشق، وتولى بعض القضاء فيها.. حينما قال فيه:

على بيت عصرون العَفَاءُ فما لهم
قديم ولا عند الفخار حديثُ

إن ركب القوم البغال أو ابتدوا
فما لهم في المكرمات حديثُ

بغالاً ترى أذناً بها كلحاهم
فتضرط من أفواههم وتروث

وما لهم وُدٌّ... بلى إن كلهم
يَعُوقُ عن الجدوى وليس يغوث

وهذا النوع من الهجاء يقرب في أسلوبه وهدفه إلى المداعبة الثقيلة إذ ليس فيه مسا لعرض أو قذف محصنة أو محصن. ولا إقذاع يصل إلى أعلى درجة في الرسم البياني للهجاء.

○ ○ ○ ○ ○

(١) هكذا: تبطرم. ولعل الصحيح كما قال شارح ديوان الشاغوري - تبرطم -.

استصحاب الابتسامة إشراقة للنفس ومجلبة للسعادة

إن طرح الهموم جانباً باستصحاب الابتسامة والضحك ما هو إلا مطلب ينشده كل إنسان، لأن الابتسامة عامل صحي له مردود نفسي يمد الجسم بطاقة وبحيوية لا تعرف الملل.. ولهذا فإنه لا بدّ لاستجلاب الضحك من وقفة، بل وقفات نسائل فيها النفس ونقطع بها أحاديث أحلام اليقظة التي تجلب الوساوس، وتشغل البال.. ونقفل بها باب التفكير في أمور المجازاة التي يكون في إماتتها ودفنها راحة للضمير وتجنباً لخوض المشكلات التي تزيد القلق قلقاً، والهم كمداً، والجرح ألماً.. لنقول للنفس في حديث يتصف بالهمس ويمس حبة القلب مسا.. ثم ماذا؟ إذا نحن عاتبنا وأخذنا بمبدأ المجازة في كل شيء، والمحاسبة على كل شيء، ولم يغض البصر عن الصغيرة ونتجاوز عن الكبيرة، ونصطحب التغافل في كثير من الأشياء؟! لنجد الجواب ناطقاً بما ملخصه:

- إن نحن فعلنا ذلك فقد حملنا أنفسنا أعباء ننوء بها، وأثقلنا كواهلنا بالمتاعب التي هي والابتسامة في تضاد وتنافر يأبى معه اجتماعهما في نفس واحدة.

ومن واقع هذا التضاد أصبحنا ملزمين بالبحث عن الابتسامة وعن مسبباتها لتشرق أنفسنا بها، ولنطفئ بها لهيب البأس والكمد وكل عامل من العوامل التي تؤثر على النفس.. لنمرح مع الحياة ونردد أهازيجها الجميلة وأغنياتها العذبة التي تطرد الهم وتجلب السعادة وتوفر الهناء والصفاء..

ومما يدور حول هذا المفهوم المتعلق بفاعلية الضحك الذي يحمل النفس على الأحلام السعيدة قول الشاعر محمد عبد القادر فقيه في مقطع من مقاطع إحدى قصائده:

اضحكي يا نفس وابتسمي
وأنشدي من أعذب النغم

وإذا ما ظلمة حلكت
فاحلمي بالفجر في الظلم

لا تبالي منيّةً دُفنت
في فيافي الموت والعدم

أو حبيبا ما وفى أبداً
أو صديقاً عاث بالذمم

أو قريباً في قرابته
قاطعاً للود والرحم

جاحداً للحق يعرفه
ومعاني النبل والكرم

اضحكي يا نفس رب فتى
خُضّبتْ أسيافه بدمي

غصة في حلقه وشجى
منظري أسعى على قدمي

○ ○ ○ ○ ○

توقف شريط الذكرى على لوحة العرض!!

ينتاب المرء حيناً جيش من الذكريات، فيستعرض منها ما شاء الله أن يستعرضه في فترة وجيزة لا تسمح بإقامة مقارنة بين الماضي والحاضر الذي يعيشه.. لكن بعض تلك الذكريات يقف على لوحة العرض. وكأنما هو يقول له: أتذكر كذا وكذا؟!! ويأخذ في سرد ماضٍ يحمل النفس على الرجوع إلى الوراء، والوقوف على أهم الذكريات التي تندفع الأماني إلى استعادتها والتعايش مع أصحابها الذين حفر الزمان صورهم في نفسه فكان العشق يهيم به نحوهم كلما أطلق الهاجس وسبح فوق موجة الخيال التي تظهر على سطح الزمن البعيد حينا وتدنو حينا آخر نحو الشاطئ الذي يقف عليه في حاضرة لتهيج الذكرى في نفسه.

واستعادة الذكريات لتمضية بعض الوقت.. وتقليب صفحات الماضي شيء فيه متعة واستجمام من متاعب الحاضر.. ونسيان شيء من همومه ومعاناته.

ألا ترى كيف يسعد المسنون بلقاء بعضهم ببعض، وتذكر أزمانهم، ومسارح طفولتهم ومرابع شبابهم.

أما الشاعر الذي يقف به الزمان على ملاعبه التي استحالت إلى أطلال... وتنقله الخيالات إلى أيّامه التي مضت ولياليه التي خلت وأصبحت أثراً بعد عين. فإنه يجنح بشاعريته إلى رسم صورة الماضي في أسلوب تذكري يثير في نفسه لوعة فقد الأصحاب وتصرم الزمان. وذلك مثل مناجاة الشاعر محمد عبد القادر فقيه لليل:

كان لي يا ليل سُمّارُ
وأحباب وصحبُ

فرقتنا غيرُ الدهرِ
وأطماع تشبُّ

ورمال ظل سافيها
على الود يهب

ثم يجعل في الصورة ما يوحي إلى حاضر لا يقاس بأنس ومرح الماضي الذي لم تبق إلَّا ذكراه.

عفت الدرب فما عاد
لنا يا ليل دربُ

وبعد ذلك يأتي على ذكر طرف من واقعه الذي صرم عهده وانطوت صفحاته.

كان لي يا ليل أشعارٌ
أناجيها وكتبُ

كان لي يا ليل أحلامٌ
وآمال وقلب

وكيف انطوت الأحلام وانتهى الدرب إلى بعد ومدى يتعذر الرجوع منه.

فرت الأحلام من عيني
وما كانت تغب

وترامى القفر في قلبي
فما ينبتُ عشبُ

نداء من الواصل للدامغ!!

عندما يتغيب شاعر أصيل له قصائد رنانة تدوي في حلبة الشعر وساحة الأدب تلاحقه أسئلة كثيرة.. أدناها ربما جاء بهذه الصيغة: هل أجبلت قريحته أو تصحرت رياضه الفن؟ أم سقط البلبل من ذؤابة الغصن فأهيض جناحه؟. أم أنه ترجل من على صهوة جواد الشعر طواعية؟. أم أنه ترك المسرح وخرج فجأة من الباب الخلفي؟ كل هذه الأسئلة وغيرها تستوقف أي شاعر مرموق يغيب عن الأنظار بلا سبب معروف.

ـ والحقيقة أن شاعراً قد صال وجال في ميدان الشعر وصار له قراء يتذوقون شعره. لا بدَّ أن يستنطق إذا لزم الصمت حتى لا يتراكم الصمت على لسانه فلا يستجيب لقريحة ولا يبوح بمعاناة يشارك بها من أجل التخفيف عمن يشكو من ثقل الحياة.

ثم إن لجوء شاعر قد عرفه الناس واستطابوا شعره وطربوا له إلى الصمت بعد خسارة تمنى بها ساحة الشعر. بل يترك فراغاً. لا يسده سواه.

وقلم الرقيب إذا أمسكت به يد شاعر يتفقد لآلئ السمط ويبحث عما يسقط منها بحثاً من شأنه أن يعيدها إلى سمطها ليستمر اكتماله..
ـ نراه دائماً شديد الملاحظة وكثير التلفت نحو فرسان ساحة الشعر..
فإذا ما تخلف عن الحضور إليها شاعر ما أخذ في مساءلته عن الأسباب.. وطالبه بالعودة في الحال.. وذلك مثل الشاعر عبد الرحمٰن عبد الله الواصل حينما لاحظ تغيب الشاعر إبراهيم محمد الدامغ عن ميدان الشعر.. فوجه إليه نداء في قصيدة طويلة يطالبه فيها بالعودة إلى صف الشعراء. منها قوله:

شاعر الأمس عُد إلينا ضياء
تاه قومي في ظلمة الأذهان

عد إلينا قد طال منك غياب
فشقينا من بعده بهوان

شعراء الانبساط عزّوا وهُنَّا
لست أدري أترتضي ما نعاني؟

عُد إلينا كما يعود كنار
شوقه هَزّ دوحة بالأغاني

ثم بعد ذلك بأبيات يطالبه بالعودة إلى ساحة الشعر ببلده عنيزة:

لا تدعها فعد إليها بعزم
دامغيّ يروي فم العنفوان

قبسا من شرارة الثأر يصلي
بشواظ معاقل الطغيان[1]

وقبل اختتام القصيدة بأبيات يكرر المطالبة بالعودة:

عُد فلم يبق في البيادر كدس
أكل القحط ما بها والتواني[2]

عد فجوع الإبداع قد زاد حتى
أنهكتنا أنيميا الحرمان[3]

والقصيدة طويلة جداً كما أسلفت فهي تبلغ ٧٥ بيتاً وقد نشر في جريدة الرياض العدد ٨٧٧٧ يوم الأحد ٥ محرم عام ١٤١٣هـ.

---

(١) شرارة الثائر: هو عنوان لديوان الأخ إبراهيم محمد الدامغ.
(٢) البيادر: هو عنوان لديوان آخر لإبراهيم الدامغ.
(٣) أنيميا: هو تعريف باللغة الإنجليزية لمرض فقر الدم في الإنسان.

دمع الوداع المكفكف. والجاري

يأخذ حزن الوداع عمقاً في نفسي المتوادعين. وتلتهب مشاعرهم بلظى الأسى الذي يكون حطبه الفراق، فلا تسمع لهم إلا تمتمة وهمساً تترجم بعضه نغمات توله لا يفك رموزها إلّا متتلمذ على أستاذ الفراق ومتخرج في مدرسة الشتات.

ومن الناس من لا يطيق ساعة الوداع فيحصل له في لحظتها إغماءً. ويصاب بشيء من سرحان الذهن وينعقد لسانه فيعجز عن تفريغ ما بداخل نفسه من ألم وحزن يفوق كل تصور. فتترجم الدموع مشاعره وتبوح ببعض ما انطوت عليه نفسه من أسى ولوعة.

ومن الشعراء الذين أشاروا في أشعارهم إلى أن الدمع الذي كفكفوا انسكابه بأكفهم قد أباح بشيء مما في نفوسه من حرقة أججتها لحظات الوداع في موقف الافتراق الشاعر الشاغوري واسمه أبو محمد فتيان بن علي بن فتيان بن ثمال الأسدي المولود عام ٥٣٠هـ والمتوفى عام ٦١٥هـ والذي بالغ في وصف جفاف الدمع الذي نزحه البكاء على الفراق:

لم يترك البين لي قلباً أصبّره

على الصدود ولا دمعاً أكفكفه

وله أيضاً أبيات من جملة قصيدة في مثل ذلك. وهي قوله:

ما أنا يوماً بعد يوم بينكم

بواجد منكم وحاشاكم خلفْ





لي أدمع تنشر في الخد الأسى
وأضلع مطوية على الأسفْ

فإن شككتم فاسألوا مدامعي
ما جاهل بقصة كمن عرفْ

قد وقف القلب على حُر الأسى
مُذْ بان عني راحلاً وما وقف

أكفكف الدمع بخدِّي قانياً
فأنثني من أدمعي خاضب كف

* * *

وكذلك الشاعر العقيلي. واسمه. أبو الحسن بن الحسين بن حيدرة بن محمد بن عبد الله بن محمد العقيلي من ولد عقيل بن أبي طالب أخو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ولم أعثر على تحقيق شاف يحدد مولد الشاعر العقيلي. ولا سنة وفاته، وكل ما أشير إليه من هذا القبيل، أنه عاش ما بين القرنين الرابع والخامس الهجري.. وصف ما يفعله الوداع من جريان الدمع:

ومما شجاني أن يوم وداعهم
أذاب الأسى قلبي فأجراه من طرفي

فلما أشاروا بالسلام تسلمت
يدُ البين روحي فأسلمتها إلى حتفي

○○○○○

ابن الحجاج يضع شروطاً للفرس التي استهداها من أبي تغلب

وأجواد الناس والكرماء، وأهل الفضل والسخاء منهم، هم الذين دائماً وأبداً يكونون موضع ثقة تامة ممن يستهديهم ويعول على عطاياهم وصلاتهم فلا يساور من يستجديهم أدنى شك في أنه لا يقضى من لدنهم حاجته مهما كان نوعها.

وهذه الثقة بأهل الجود والكرم تجعل من بعض المستهدين خاصة منهم الشعراء يحددون نوع ما يستهدونه منهم، بل إن بعضهم يضع شروطاً يجب توافرها فيما يطالب بإهدائه إليه.

وأنواع تلك الأساليب الاستجدائية كثيرة، وقد تضمنتها أعمال بعض الشعراء الذين كانوا يطرقون أبواب الأغنياء، والوجهاء، والأعيان ورؤساء القوم وأمرائهم.

من ذلك ما عرضه الشاعر الحسين بن أحمد الحجاج المتوفى سنة ٣٩١هـ في قصيدته التي استهدى بها فرساً من أبي تغلب، واشترط في أن تكون ذات صفات يرغبها هو. وذلك بقوله:

اسمع المدح الذي لو قيل في
أحد غيرك قالوا سرقا

جاء يستهديك مهراً أدهما
يركب الفارس منه غسقا

كالدجى تبصر من غرته
فوق أطباق دجاه فلقا

جلّ أن يُلْحق مطلوباً ومن
طلب الريح عليه لحقا

فتراه واقفاً في سرجه
يتلظى من ذكاء قلقا

فإذا طار به المشي مضى
وهو. كالريح يشق الطرقا

كالسحاب الجون إلّا أنه
ليس يسقي الأرض إلّا عرقا

جمع الأمرين: يعدو المَرَطى
في مدى السبق ويمشي العَنَقا

والمَرَطى: بفتحات: نوع من العدو.. والعنق بفتحتين: السير السريع.

ومن الملاحظ أن الأبيات قد جاءت في صورة جميلة اشتملت على وصف لون الفرس وهيئته، وتوثبه، وخفة حركته وسرعة عدوه، فشكلت بواقعها أدباً وصفياً يستحق الدراسة بصفة عامة، والوقوف على كل بيت منه.

○○○○○

غاية الأنس عندما تكون الهدية محققة رغبة النفس!!

في موضوع تقدم تحت عنوان «ابن الحجاج يضع شروطاً للفرس التي استهداها من أبي تغلب» ذكرت أن الشاعر الحسين بن أحمد بن الحجاج المتوفى سنة ٣٩١هـ قد استهدى أبا تغلب فرساً تكون موافقة في أوصافها لما يحب توفره فيها من حيث الهيئة والحركة.

ولقد فاتني أن أعلق على اشتراطه نوع الهدية وصفتها بما يناسب المقام من الأمثال الدارجة على ألسن الناس، وذلك مثل قولهم: «طفيلي ويقترح».

فابن الحجاج الذي استهدى واشترط نوع الهدية وصفاتها ما هو في هذه الحالة إلّا كمن يريد أن يشتري بثمن حاضر.

وعلى الرغم من شروطه الطفيلية فقد أهداه أبو تغلب فرساً أصيلاً وافق شروطه التي ضمنها الأبيات التي أوردتها شاهداً في الموضوع الذي أشرت إلى عنوانه آنفاً.

ولقد أظهر ابن الحجاج رضاه عن الهدية وباح بامتنانه بها، فصنع أبياتاً عبر فيها عن سروره بتلك الهدية، التي كانت غاية أنسه، وامتدح أبا تغلب بما هو أهل له، ثم ضمنها وصفاً لذلك الفرس المهدي إليه.. من تلك الأبيات قوله:

اليوم يوم سروري

بالموصليِّ الذنوب



من عند قرم كريم
جزل العطاء لبيب

آدابه جعلته
يُغْنى بكل أديب

ركبت فيه القوافي
فجاد بالمركوب

ذو غرة يتلالا
في حالك غربيب

لون الشباب عليه
مع غرة كالشيب

صهيله جوف أذني
ولا غناء عريب

وبعد أن رسم ابن الحجاج هذه الصورة الوصفية للفرس رأى أن يشبهه بالتحفة الثمينة التي يجب أن يعتني بها أيما عناية، وأن ينزه ظهره فلا يمس بركوب، لكن الاضطرار هو الذي حمله على ركوبه، إذ يقول:

لولا اضطراري إليه
نزهته عن ركوبي

○ ○ ○ ○ ○

الموت دون الهدف هو العذر في عدم بلوغه!!

وبعض الشعراء الفرسان وغير الفرسان في الجاهلية والإسلام، يميلون في أسلوبهم الشعري إلى الافتخار والمفاخرة بمصادمة الأعداء وخوض الأهوال، والجسرة على قطع الفيافي والقفار التي لا يُهتدى فيها إلا بالنجوم ومعرفة الجهات.

وطابع الاعتزاز بالنفس له مكانة في أشعارهم مثلما للشجاعة في حياتهم دور يبرزون من خلاله في ساحات اللقاء ومقاتلة الخصوم بقلوب صمع لا تهاب ولا تخشى الموت في سبيل الوصول إلى غاية منشودة.

وهم ـ وأعني بذلك الشعراء ـ سواء الفرسان منهم وغير الفرسان. يرون أن الموت الذي يلقونه حينما يتجهون إلى تحقيق أي هدف هو العذر الذي يشفع لهم بعدم الوصول إليه.. وكأنما هم يقولون لمن سيسطر أخبارهم، إياك ولومنا في عدم تحقيق خططنا التي رسمناها لأنفسنا وقررنا الوصول إلى غايتها. فها نحن قد متنا ونحن في سبيل الوصول إليها ـ وذلك عذرنا. ولا لوم علينا.

يقول امرؤ القيس، واسمه حندج بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن عمرو أنهى الناسبون نسبه إلى قحطان. يقول من قصيدة قالها أثناء توجهه إلى قيصر ملك الروم مستنجداً به على رد ملكه إليه. والانتقام من بني أسد:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحقان بقيصرا



فقلت له لا تبك عينك إنما
نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

وحول هذا المعنى يقول الشاعر الفارس عنترة بن شداد العبسي «وقد اختلف في أنه عنترة أو عنتر» يقول من قصيدة يفتخر فيها ويظهر مدى شجاعته وإقدامه:

سلوا صرف هذا الدهر كم شن غارة
ففرجتها والموت فيها مشمرُ

بصارم عزم لو ضربت بحده
دُجى الليل ولي وهو بالنجم يعثرُ

دعوني أجدُّ السعي في طلب العلا
فأدرك سؤلي أو أموت فأعذرُ

أما الشاعر المتنبي. فقد ذهب بهذا المعنى مذهباً مغايراً من حيث الهدف حيث وضعه في أسلوب غزلي. فلم يجعل لمن يرى حسن وجه تلك التي تغزل فيها ولم يمت عذراً.

رأتْ وجه من أهوى بليل عواذلي
فقلن نرى شمساً وما طلع الفجرُ

رأين التي للسحر في لحظاتها
سيوفٌ ظباها من دمي أبداً حُمْرُ

تناهى سكون الحسن في حركاتها
فليس لراء وجهها لم يمت عذرُ

○○○○○

عندما تموت النخوة ينطق الشعر بالحزن!!

لا يختلف اثنان على أن الشاعر صفحة ناطقة بتاريخ العصر الذي عاش فيه. ومرآة صادقة الرؤية لما يعرض أمامها من الأجسام. بل إنه يتتبع الأحداث وينقل المشاهد بأنواعها سواء ما كان منها مفرحاً أو محزناً ـ والشاعر حينما يكون ميالاً بطبعه إلى إثارة النخوة في قومه نراه يحرص كل الحرص على وصف المشاهد المؤلمة التي يعامل بها ضعفاء قومه، أو يستبد المعتدي بناحية أو طرف من أطراف بلاده فيحصل التهاون المشوب بالذل، الذي يحول دون رفع الظلم الذي وقع من ذلك الظالم.

والتاريخ ينقل بين طياته صوراً مثيرة كان أعداء الإسلام يمارسونها حينما تكون لهم الغلبة بسبب ما يحصل للمسلمين من تخاذل وتحاسد وتباغض يخلخل صفوفهم ويضعف قوتهم التي تبسط العدل وتشيع الأمن بين الناس وفي أرجاء البلاد التي يفتحونها.. فكم روى التاريخ الذي يسجل نكسات المسلمين من صور سبي للفتيات المسلمات. وكم نقل لنا من صور بشعة ارتكبها أعداء الإسلام ضد الإسلام وأهله. لعل أحدّها وأحدثها ما فعله الصرب في مسلمي البوسنة والهرسك فيما كان يعرف بـ «يوغسلافيا سابقاً».

وإذا ما أردنا تحليل ما منيَ به المسلمين من تخاذل وجدنا أن السبب يكمن في موت النخوة التي عمادها التظافر. ونبذ الخلاف والتحام الصفوف.. ومن صور موت النخوة تلك الصورة التي سجلها الشاعر خيري الهنداوي المولود عام ١٨٨٥م والمتوفى سنة ١٩٥٧م في

قصيدة له صور فيها حالة فتاة وقعت سبياً في أيدي أعداء الإسلام الذين لا يرحمون امرأة ولا شيخاً كبيراً ولا طفلاً لا يفهم شيئاً. وإنما هم وحوش لا يقيم للأدب ولا للإنسانية وزناً.. يقول من تلك القصيدة:

ظلت تخاطبه ولا من سامع
وتذود دمع العين وهو سجام

حتى إذا علمت بألّا يرتجى
- لنحيبها - حتى القيام قيام

صكت براحتها منير جبينها
فاسود ذاك البدر وهو تمام

صرخت بأعلى صوتها مرعوبة
فالتف حول صراخها الأقوام

أخذوا الفتاة سيرة لأميرهم
تدعو الكرام وما هناك كرام

يا هذه كفي الدعاء فقومنا
لو تعلمين عن الدعاء نيام

لا تستغيثي ليس - معتصم - بنا
كلا ولا فينا يُعدّ همام

ماتت عواطفنا بموت رجالنا
فجميعنا بمماتها أيتام

○○○○○

عيادة المريض

وعيادة المريض أمر قد حث عليه ديننا الحنيف، فقد جاء في الحديث الشريف الذي أخرجه البخاري عن أبي موسى الأشعري قال قال: رسول الله ﷺ: «أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العاني». وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع، نهانا عن خاتم الذهب ولبس الحرير، والديباج، والاستبرق، وعن القسّيّ والميثرة، وأمرنا أن نتبع الجنائز ونعود المريض ونفشي السلام».

لكن زيارة المريض وعيادته لها مبادئ إنسانية تحض على الرفق بالمريض واتخاذ الأساليب التي ترفع من معنويته، وتوجد فيه العزيمة على مقاومة المرض.. وذلك كإشعاره بأنه أصبح في حالة أحسن مما كان عليه في السابق.. وأن مظهره يدل على أنه في تقدم صحي.. لا أن يقول عند عيادته للمريض: إني أراك متعباً اليوم، وآثار الألم قد بدت لي من ملامحك وقسمات وجهك، هذا من ناحية التقرير عن حالته الصحية.. أما عن المؤثرات الخارجية التي يجب أن يتحاشى عائد المريض ذكرها، أو الحديث عنها على مسمع من المريض فهي ذكر من مات في اليوم الذي قام فيه بالزيارة أو الحديث عن الموت، فإن هذا شيء يجعله يحدث نفسه بأحاديث تعرض له صوراً تقرر له بأن مرضه هذا هو مرض الموت.

ولقد نبّه الشعراء ومنهم الشاعر حسين الجزيري إلى هذا الأمر، وبسطه في قصة زائر لصديق له مريض ومعه صديق آخر أخذ يتحدث مع

المريض عن الموت وعما يراه في كل يوم من الجنائز المنقولة إلى المقبرة، الأمر الذي جعل المريض يقلق وتضطرب حاله يقول الجزيري على لسان حال ذلك المريض الذي زاد من مرضه الحديث عن الموت من قصيدة له عنوانها «عائد المريض»:

وأتى صديق في الصباح يعودني
ويقول مثلك في الضنى لم يجزع

وإذا برفقته رفيق لم أكن
من قبل أعرفه شبيه الخروع

قال الصديق ترى صديقي قد حذا
حذوي فجاء يعود حضرتكم معي

لكن صاحبه تفضل قائلاً
ها نحن بين مودِّع ومودَّع

في كل يوم نلتقي بجنازة
والناس بين مشيِّع ومشيَّع

والموت باب في انتظار جميعنا
فلنستعد إذن ليوم المصرع

ومنها قوله:

وشكرت صاحبه لحسن جميله
إذ كان شر فنى بهذا الألكع

إني لأنصح من يعود عليله
أن لا يخوض بمثل هذا المرتع

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ نحواً من ١٧ بيتاً وموجودة في «ديوان الجزيري».

المرض يجعل النفيس رخيصاً!!

والإنسان بطبيعته يخطط ويؤمل لسنوات طوال.. وهو إلى جانب تخطيطه يحب المال حباً جماً، ويتفانى في جمعه وتربيته، ويعرض نفسه للخطر دون ذهابه.. كل هذا وغير هذا مما يجول في خاطره، وتحدثه به نفسه، ويرسم الخطوط العريضة لمباشرة العمل فيه.. أقول كل هذه الحقائق والآمال المطروحة أمامه خاضعة لقدرته ما دام يرفل في ثوب الصحة، وينعم جسمه بالعافية.

أما إذا اعتل جسمه ودب في جسده أبسط الأمراض فإنه يرخص كل شيء كان في نفسه غالياً ويرمي بما في يديه من مخططات خلف ظهره، إذ لا هَمَّ له إلّا طلب الاستطباب والبحث عن العلاج الناجع الشافي في أي مكان ولدى أي طبيب.

وهذه الصورة التي تجمع بين ضدين في نفس الإنسان لا يستغرق تحول أي منها في نفسه من وضع إلى آخر إلّا ساعات قليلة.. إذ قد ينام معافى عاقداً العزم على السفر لتوقيع عقد أو شراء صفقة، فيوقظه المرض من نومه، وما يأتي الصباح إلّا وهو على نقيض ما قد عقد العزم على القيام به قبل نومه.. وقد يكون مريضاً لا يهمه من الحياة ولا من الدنيا إلّا نفسه فينام ثم يستيقظ وهو قد شفي من مرضه. فيدب حب الدنيا في نفسه، وهكذا..

ولسان حال الشعراء الذين مرضوا ووصفوا حالاتهم النفسية التي عايشوا بها المرض يترجمه الشاعر أحمد محمد جمال الذي قال بعد أن عانى من المرض ما عانى:

مرضتُ فلم أسطع على مرضي صبراً
فقد شفّ منيّ الجسم والفكر والصدرا

مرضت فقضيّت الليالي ساهرا
أقاسي على زبوي الوساوس والذعرا

مرضت فأبغضت الحياة لأنني
فتى ما درى فيما مضى الويل والضرا

مرضت فأمّلت الممات فإنه
لأعذب من داء أعيش به دهرا

مرضت فسيان الدجى وسنا الضحى
لديّ وما أشجى كمثل الذي سُرا

وسيان عندي الخير إن سمحت به
يد الدهر أو أسدى إليّ بها شرا

مرضت فعاودت الأطباء جلّهم
لعل بدائي أو دوائي لهم خُبرا

فما جلبت نفعاً معاودتي لهم
ولا صرفت عنّي علاجاتهم ضرا

والقصيدة أطول من ذلك وهي موجودة في ديوان الشاعر الموسوم بـ «الطلائع».

○○○○○

أحياناً تخدعنا الأسماء

وفلسفة البحث في معاني الأسماء التي يسمى بها الناس، تأخذ أبعاداً، وأطراً ذات ألوان متعددة.. يقف أمامها الباحث المتفلسف وقفة تشبعه حيرة عندما يأخذ نموذجاً أو نموذجين من الأسماء ذات الدلالات، ويقارن بين مسماها من الجنسين الذكور والإناث، وبين ما تدل عليه معاني أسمائهم من دلالات.. فيكاد لسان حاله من حيرته تلك أن يجزم بأن هذه الأسماء ليست لأولئك النفر حيث لم يوافق فيها الاسم المسمى.

ولهذا نقول: لو أن كل مسمى تنطبق صفاته وخصاله على اسمه لانحصرت أسماء الناس في عدد من الأسماء والصفات.. ولكن ليس كل اسم دال على مسماه.. وإن حصل ذلك ووجد فإنه ليس بنتيجة معطيات وبراهين اسمية منطبقة على مسماها، وإنما ذلك يأتي من باب بعض التوافق المحمود.

فكم من النساء من سميت مثلاً.. أديبة، وسميت.. سامية.. وسميت.. أمينة فجئن بخصال مخالفة تماماً لمفهوم أسمائهن، بل ربما جئن بأفعال مضادة لمفاهيم أسمائهن تماماً.

وكم من الرجال من سمي قبلاً.. سعيداً، وسمي.. نافعاً، وسمي.. صادقاً، فكانت أفعالهم وسلوكياتهم وخصالهم مضادة لما تعنيه أسماؤهم ومجانبة لها تماماً.

والذي يستدل على المسمى بدلالات اسمه دون النظر إلى فعله وسلوكه لا يستبعد وقوعه في قصيدة خداع الأسماء.

وفي هذا المعنى نظم الشاعر أحمد عنبر قصيدة جعل عنوانها «من أسماء الأضداد» استفتحها بقوله:

أصبت بضعف بإحدى الليالي
فزرتُ لئيماً ليصلح حال

ومنها قوله:

خُدعتُ بأن له اسماً جميلاً
ظننتُ له منه بعض الجمال

وكم من شقيّ يسمى سعيداً
ورُبّ رخيص وفي الاسم غالي

ورُبّ فتاة كقرد قبيح
تسمى ويا عجباً بالغزال

وكم من صَدُود نفور غضوب
تنادَى بسمة أو بنوال

وعين لنا هي عضوٌ نفيس
وعين علينا شديد النكال

ونجم السماء قريب الهلال
ونجم النبات فويق الرّمال

فنجم يسامى بعيد المنال
ونجم على الأرض تحت النعال

○○○○○

الحب بعد الستين

وإذا بلغ الرجل ستين سنة من عمره فإن حبه وأعني بالحب العشق والغرام وكل ما يثيره الغزل في النفس من شهوة وتشوّق، يكون في إحدى درجتين من القوة أو الضعف، فهو إما أن يكون قد صلب عوده على الحب وارتكز مدار غرامه على مركز دائرة الجمال الآدمي فلا يستطيع التحول عما وصل إليه من هيام بالجمال والافتتان باللقاء...

وإما أن يكون قد ضعف عنده هاجس الحب وانطفأت جذوة ناره بعد ما انسحبت عليه ذيول سنين العمر التي بلغ تراكمها ستين سنة.. وانطمس هاجس العشق الذي كان يخالج نفسه، ويعانق أفكاره.. ومسح من نفسه جميع نزوات الشبان التي عايشها في ربيع عمره.

والشاعر الذي يتذبذب في اتجاهاته، ويحدث نفسه أحاديث تجمع بين العدول الاختياري عن الحب وأساليبه وطريقه التي تقدم وصفها.. والعدول الإجباري الذي يأتي بسبب وهن القوى التي لا يستطيع معها إلا بحار بالتجديف في بحر الغرام ومقاومة أمواجه التي اعتاد ركوبها قبل فترة من الزمن، وبين الإصرار والمضي في رحلة العشق مهما امتدت به السنون وطال به العمر.. نراه يقع في حيرة من أمره.. لكنه يرسم تلك الحيرة في شيء من أشعاره التي حدد فيها القدرة على ممارسة الهوايات التي كانت محببة إليه وقت عنفوان شبابه وربيع عمره.

ومما يقرب من مفهوم هذا الموضوع بالنسبة للتحول الاختياري والإجباري الذي لا مناص لمسن من مواجهته. يرسم له الشاعر إبراهيم

هاشم شطا صورة شعرية في أبيات جميلة تتميز بشرف المنطق وعذوبة التعبير. منها قوله:

أبعد ستين أصبو
والحب للشيب عيب

شيب وحب وشعر
ثلاثة هن صعب

إن شاب رأسي وفودي
لم يشب لي قلب

ما حيلتي وذهابي
لروضة الحسن قرب

ظمآن أنشد ريا
والري للنفس طب

إلى الجمال غُدوّي
ومنهل الحب عذب

لا أرتوي منه مهما
شربت نهجاً أعب

ما دام قصدي شريفاً
محبتي تستتب

○ ○ ○ ○ ○

مجرد ملاحظة

يتزايد التذمر من الغيورين على دينهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم المنسجمة مع تعاليم الإسلام من المخالفات الفكرية والأدبية والإعلامية التي تتسلل بأسلوب ثعلباني وانسياب ثعباني إلى داخل المجتمع الإسلامي في أشكال قد لا تبدو عليها الملاحظة لأول مرة، وتفسر بأنها عفوية وليست لغرض فتنة جنسية كما هو مخطط لها في الأصل، فيحصل السكوت والتساهل في التنبيه على أنها وسيلة لهدم الأخلاق وقتل العفة. و«فيروس» خبيث لا يؤلم في بدايته جسم المجتمع الإسلامي حتى يستقر في مراكز القوى ويتخذ منها منطلقاً إلى سائر الجسم عابثاً بكل مضاد له.

لكن الملاحظ أن ذلك التساهل قد أعطى المخالفات الفكرية والامتهانات الأدبية التي تصل إلينا على أجنحة ملونة يعشقها الجاهل، وضعيف الإيمان، فرصة تغلغلت من خلالها إلى بيوتنا ومكاتبنا بل مكتباتنا ومتاجرنا ومؤسساتنا باسم أنها وسيلة ثقافية وقناة إعلامية وإخبارية، متناسين أنها - وأعني بذلك الصحف والمجلات الخليعة - تحاول أن تصيب عصفورين بحجر واحد حينما تختار صور الجميلات من النساء فتضعها على الأغلفة والصفحات الداخلية منها.. فهي بذلك تضمن من الناحية المادية إقبال ضعفاء النفوس على شرائها، ومن ناحية أخرى تحاول أن تثير بتلك الصور الملونة فتنة جنسية في نفوس بعض من يتمعنونها، بل ربما جعلت بعض الشباب يمضي في عنوسته. وهو يبحث عن زوجة ذات مال على مستوى جمال تلك الماجنات، اللائي جعلن من صورهن سوقاً تجارياً مبرمجاً في تلك الصحف.. ولقد لاحظ

الشاعر سليمان بن عبد الرحمٰن العبيد هذا المسلك الذي تسلكه بعض الصحف العربية فجاءت ملاحظته في قصيدة منها قوله:

فإلى متى والصحف تزخر بالفساد
تدعو لتمزيق الفضيلة والحجاب

فإلى متى والصحف تهزأ بالدعاة
وتسومهم بالهمز ألوان العذاب

«متطرفون» ولست أدري ما الذي
يعني الطرف عند هاتيك الكلاب

أهو العقيدة والصلاة لوقتها
أهو الأمانة والنصيحة باحتساب؟

أهو المروءة والمحبة للورى
وعزيمة شماء عانقت السحاب؟

ومنها قوله:

يا أمة بليت شربليّة
أعداؤها أبناؤها فهم الخراب

لغبائهم كفوا العدو جهادهم
فتمزقَتْ وأتوا سراعا كالذئاب

وضروحها هدمت وفي أطرافها
بنت الأعادي المجد من ذاك التراب

والقصيدة أطول من ذلك فهي ١٧ بيتاً قرأتها في العدد ٦١ رمضان ١٤١٣هـ من مجلة «البيان».

○○○○○

ما يدخل في مفهوم تحصيل الحاصل

إن تفسير الماء بعد الجهد بالماء لا يعني إلا تصوير حالة كاتب أو شاعر أو ناقد حاول أن يولد معنى جديداً لموضوع توهم أنه سيلقي بظلال فكره عليه. فعاد إلى نقل نص قديم كان قد سبق إليه أو كما يقولون لمن يكلف نفسه عبء حمل تمر ليهديه إلى أهل هجر فلا يجد صدىً لقبول هديته، إذ أن هجراً مليئاً بما هو أطيب من تمره.

وإني لأعجب كل العجب من بعض مؤلفي زماننا كيف يعطي نفسه الحق فيقتبس بعض أو قل كل الموضوعات من عدد من الكتب ثم يجهد نفسه في اختيار عنوان لها بعد أن يدعي صناعتها ويؤكد ذلك في توطئة مُنَمّقة ربما استعان بأحد الكتاب على تحبيرها بأنها من بنات أفكاره وتجليات خواطره، وكذلك الشأن في حال بعض الشعراء المتطفلين على الشعر، أو الذين يسميهم النقاد الشعارير.

وإذا ما ابتعدنا قليلاً عن الادعائين الذين لا يستطيعون الظهور إلّا على أكتاف غيرهم بصورة خفيفة كالاقتباس من أعمال غيرهم اقتباساً يتجاوزون به الحد المعقول، يخرجون به عن مفهوم قولهم «عقول الرجال يلقح بعضها بعضاً» بل بالاعتداء والجرأة على سلب أفكار غيرهم بسرقة غير مؤدبة، وأعني بغير مؤدبة أنهم لا يشيرون إلى أي مرجع استعانوا به أقول إذا ابتعدنا عن أولئك. واصطحبنا بعض الشعراء المرموقين في رحلة مع قصائده. وجدنا أن منهم من يأتي ببعض القصائد التي لا يخرج في مفهومها العام، ومفردات كلماتها عما يتفق على نقدها بأنها تحصيل حاصل ليس إلّا. لأنها خالية من أي معنى

جديد أو تجليات شعرية بديعة.. والشاهد على ذلك قول الشاعر عبد الغني النابلسي:

كل أناس لهم لغات
وكل محولة ثبات

وكل وقت له كلام
وكل شغل له أداة

وكل سر له ظهور
وكل ليل له سراة

وكل أمر له سماء
وكل شخص له سمات

وكل حكم له مضاء
وكل ذات لها صفات

وكل خمر له مدير
وكل كأس له سقاة

وكل سهم له مصاب
وكل قوس له رماة

وكل طير له غذاء
وكل وحش له فلاة

أخيراً أظن أن هذا كافياً للاستدلال على كد الفكر في تحصيل ما قد كان حاصلاً.

○○○○○

إذا تداخلت المعطيات في فهم المعنى اضطربت النتيجة!!

وسواء كان الشاعر الدكتور منصور الحازمي قد ألقى بالرمزية جانباً، وأخذ بزمام الواقع المكشوف، وأعلن أن الداعي إلى إيقاظ قريحة الشعر وإحكام أنغام أوتاره إنما هو بسبب قراءته لشعر شاعرة من الشواعر شحنته بما أثار فيه الحماس ودفعه إلى التعبير عن شعوره.. أو أن الذي أملى عليه الشعر إنما هو دافع الرغبة إلى التناوح.. وذلك بقوله:

المدلجات بليل الحزن سُمارى
وأنت شاعرة أيقظت أوتاري

يحملن أفئدة للهو هامدة
وتحملين فؤاداً جذوة النار

أحكمت حول خفايا العمر أنسجة
فرحتِ كالحلم تغتالين أسراري

وإن لم يكن كذلك وأن الذي نَبّه هاجس الشعر في نفسه إنما هو تصور لشاعرة نسجت أبياتاً حائرة تبحث عن خيال من أخيلة الفلاسفة، ونقاد الشعر.. فذلك ما ينطوي في فلسفة الشعر ورمزيته التي كثيراً ما يقال عن غموضها: «المعنى في بطن الشاعر» كحل يبتعد بالناقد عن الخوض والتخرص في أشياء تتداخل فيها المعطيات والبراهين، وتأتي بنتيجة مضطربة لا يحزم بحقيقتها.

وقصيدة الشاعر الدكتور منصور الحازمي متصلة البناء فهو يقول بعد الأبيات التي تقدمت.

إذ تهمسين كأن اللفظ أجنحة
توقع اللحن في أشلاء قيثار

في ليلة سكنت أنسامها وهوت
أقمارها واشرأبت شرفة الدار

تظل تنضح بالأشذاء في وله
أشاقها الوجد أم حنت لأطيار

وإن لم يكن غريب الدار وهيجته قصيدة لشاعر أو تغريد حمامة غريبة، أو ليلة عيد متميزة عن سائر الليالي.. أو أنه صريح العبارة وأنه يتحدث إلى نفسه التي يشكل معها ثنائياً يعيش في غربة الحب.. كل هذه الأشياء يحتمل القول بأنها سبب من أسباب إنشائه تلك الأبيات التي جثمها بقوله:

نحن الغريبين يا سمراء ما حجبت
عنا السنون صدى عمر وأفكار

نقية أنت في الأعماق لؤلؤة
تلك الفضيلة قد حبطت بأسوار

ويبقى أن هذه القصيدة بسيطة الأسلوب وغير متكلفة. وأن الشاعر قد قصد بها التعبير فقط عما خالج نفسه، أما عنوانها فقد جعله «إلى شاعرة».

ooooo

يتيم يصور حالة يتمه!!

وحالة اليتم التي يعيشها كثير من الأطفال يصعب رسمها بالألوان التي يراها اليتيم أو تصويرها في الإطار الذي يحيط باليتيم، لأن المعاناة التي تلفه في رداء اليتم أكبر مما يدور مخيلة المتصور لها، ولهذا فإن المحاولات التعبيرية التي يأتي بها الشعراء وأصحاب الأقلام لا تصف حقيقة عمق تأثيره. أو تميّز ألوانه المتداخلة التي لا يعرفها اليتيم نفسه.

لكن الشاعر الذي قدر له أن يعيش يتيماً ربما كان أصدق تصويراً ولغة من غيره، وإن كانت أقل منهم بلاغة، وأضعف تعبيراً، لأن لديه بقايا ذكريات قاسية أهونها شظف العيش وفقد حنان الأبوة والتشرد.

والشعراء الذين يميلون إلى معالجة الحالات الاجتماعية التي تفرزها مرارة اليتم وغياب الحنان يجدون في تصورها مجالاً رحباً تسرح فيه شاعريتهم، وميداناً واسعاً لخيالاتهم التي تلون واقع حياة اليتيم تلويناً صادقاً في قالبٍ شعري لا تنقصه بلاغة أو بديع، ولا يعتريه تكلف.

ومن الشعراء الذين قالوا بلسان حال اليتيم الشاعر عمر يحيى الذي نظم قصيدة بعنوان «يتيم» وضمها ديوانه «ديوان عمر يحيى»، وقد بلغت أبياتها ثمان وعشرين بيتاً منها قوله:

يـا لـيـل طـوبـى لـمـعـشـر رقـدوا
إلام هــذا الـسُّــهــاد والــكــمــد

إلام أشـكـو والـيـسـر يـلـحـظـنـي
شـزراً كـأنـي لـعـيـنـه رمـد



ترنو إليّ الآلام باسمة
وتقتضيني طيوفُها الجدد

أطوي لياليّ حسرة أملي
وِردُ الأمانيّ وهي لا ترد

لا أم تحنو على مجهشة
أشكو إليها بعض الذي أجد

وابتزني الدهر والدا حدبا
فمن عليه يا ليل أعتمد

أين الحنان الذي يطالعني
بالبشر؟ أين النعيم والرغد

أين القلوب التي سترأمني
وأين مني الرجاء والجلد؟

والقصيدة طويلة، وذات مقاطع تنقل فيها الشاعر عمر يحيى تنقلاً بديعاً من الناحية التصويرية التي ترجم فيها مصير بعض من عاش يتيماً ثم تسنم ذروة المجد بأفعاله الطيبة وخصاله الحميدة.. وقد ضرب مثلاً لذلك بإمام المتقين وقائد الغر المحجلين نبينا محمد الأمين. عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

○○○○○

صورة من الحياة الحرة في الصحراء

والحياة التي يحياها الإنسان بلا ارتباطات تفرضها بعض العوامل المادية، وبلا قيود تحكمها عليه الهندسة المعمارية التي تفرض عليه التحضر والتمدن والاستسلام لرتابة الروتين. لهي نوع من أنواع الحرية التي ينشدها كثير من الناس، ويسعون جاهدين أنفسهم من أجل أن ينعموا بها، ويتقلبوا بل يتنقلوا في أجوائها كيف ومتى شاءوا.

وهذا النوع من الحرية التي تتفق والمطمع الإنساني بصفة عامة، وتنشدها أكثر ما تنشدها نفس الإنسان الذي يلتمس غذاء أخيلته وأحاسيسه الفكرية.. قد لا يوجد طابعها إلّا في البادية، وحياة الصحراء، حيث يجلب صفاء الجو وهدوئه البعيد عن ضوضاء المدينة وضجيجها، بل يولّد بعد أفقها وتلألؤ نجومها صفاءاً ذهنياً يصنع تجليات فكرية تدفع بالإنسان نحو فضاءات ليست محدودة بأسوار، ولا محصورة داخل جدر محكمة البناء ومرتفعة الشرفات، فيعانق بانتعاشه بها أسراب الطير في رفيقه إن صعد في الجو أو هبط إلى الأرض.

فتراه في حريته الصحراوية يتقي الحر بظلال الأشجار في سويعات الهجير فيوحي إليه ذلك الظل بإيحاءات ذات خواطر متعددة، وإذا جنَّ عليه الليل استلقى على ظهره فوق كثيب من الرمل مصابيحه زهر النجوم.. وهكذا يمضي مع الحياة بلا قيود يلهمه ـ تغريد الطير وخرير الماء ووقع المطر وعزف الرياح وشروق الشمس وغروبها، بل ورغاء البعير وثغاء الشاة ـ الشعر فتسيل من لسانه أبيات الشعر في تناسق كتناسق أشعة الشمس عند طلوعها وقبيل غروبها.. ولقد رسم هذه



الصورة البعيدة القيود والالتزامات الشاعر السعودي ضياء الدين رجب رحمه الله في أبيات منها:

في كل ما أخضرت به الغبراء
زهت الحضارة يبسها والماء

ومنها قوله:

ومرابع جدد كأن أديمها
سحبت عليه رفارف خضراء

ما غاب عن عين الوفاء وظلها
تلك المضارب نجعهن صفاء

ممدودة عبر الفضاء بُناتها
أرسو مراسيها كما قد شاءوا

الكون منتجع لهم ما حده
حد.. ولا ضاقت به أمداء

القبة الزرقاء شمس بنائهم
والكهرباء الأنجم الزهراء

في كل يوم منزل صوب الحيا
خفر ينمنم وشيه وحياء

والعشب بين مُفوّف ومهفهف
ترعى مراعيه مها وظباء

○○○○○

الشعر وصفاء العقيدة!!

إن عقيدة المسلم... التوجه إلى الله جل جلاله وتباركت أسماؤه وصفاته.. في كل مطلب له، فتراه يرفع كفيه مستغيثاً به، وطالباً الرزق منه، وملتمساً الاستعانة به، ومستغفراً منه ذنوبه وسيئات أعماله، فيجد الله عند حسن ظنه به غفوراً، رحيماً، شكوراً، حليماً. قال تعالى في سورة فاطر آية ٣٤: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾، وقال تعالى من الآية ٢٣ من سورة الشورى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾، وقوله تعالى في سورة التغابن آية ١٧: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

والمسلم حينما يكثر من ذكر الله فإنه يطمع فيما وعده الله به في قوله تعالى في سورة البقرة الآية ١٥٢: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

ولهذا فإن لسان المسلم يكون دائماً وأبداً رطباً بذكر الله. يفتتح كلامه بـ «بسم الله» ويختتمه بتسبيح الله وتحميده.

والشعراء الإسلاميون يوشون أشعارهم، ويطرزونها باقتباسات من القرآن الكريم ومن الأحاديث النبوية الشريفة، فتأتي أشعارهم موافقة لفكر وعقل الإنسان المسلم، ومتمشية مع روح الإسلام وآدابه ومحققة الغاية الوعظية التي أراد الشاعر نقلها إلينا بأسلوب إرشادي هو غاية في الإتقان من حيث سلاسة نظمه وبساطة فهمه وسهولة لفظه.

ومثل هذه الأساليب الطيبة الأثر ما نظمه الشاعر أبي إسحاق الألبيري واسمه إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي، المتوفى عام ٤٦٠هـ تقريباً حينما جعل قافية منظومته «الله» والتي منها قوله:

يا أيها المغتر بالله
فِرّ من الله إلى الله

ولذ به واسأله من فضله
فقد نجا من لاذ بالله

وقم له والليل في جنحه
محبذا من قام لله

وعفر الوجه له ساجداً
فعز وجه ذل لله

فما نعيم كمناجاته
لقانت يخلص لله

واتل من الوحي ولو آية
تكسى به نوراً من الله

لا شيء في الأفواه أحلى من التـ
ـوحيد والتمجيد لله

ولا اطمأن القلبُ إلا لمن
يعمره بالذكر لله

والمنظومة طويلة فهي تبلغ ٥٣ بيتاً ضمها ديوان الألبيري الأندلسي.. تحقيق د. محمد رضوان الداية.

○○○○○

البطنة وداء السكري!!

إن توفر المادة، ووجود أنواع الأطعمة، والراحة البدنية التي يتمتع بها أو قل التي مُني بها إنسان هذا العصر قد سببت له مشكلات صحية منها البطنة، وما يصحبها من ترادف الشحوم واللحوم التي تزيد من وزن الإنسان زيادة يعجز عن حملها هيكله العظمي ويحمل ركبتيه ما لا طاقة لهما به.. ويتعب القلب من ضخ الدم لتغذية تلك اللحوم المتراكمة.. ونتيجة لهذا يكون عرضة لأنواع الأمراض التي ربما يكون أهونها داء السكري الذي كان لا يعرف في السابق إلّا بداء الملوك حيث تتوفر لهم أنواع الأطعمة، مع قلة حركتهم ونشاطاتهم البدنية التي مهمتها إحراق الطعام داخل الجسم والتخلص من الزائد الذي يرهق المعدة والأجهزة المسؤولة عن الهضم وذلك بممارسة الأعمال أو الرياضة البدنية.

ولو سألنا أي طبيب عن داء العصر المنتشر بين الناس. لقال: داء السكري الذي تكون الإصابة به في غالب الأحيان بسبب إلتهام الأطعمة الدهنية والسكرية. وتناول ما يزيد على حاجة الجسم بكل شراهة يحمل بها معدته فوق طاقتها التصريفية، فيفشل البنكرياس في التعامل معها فشلاً يعطله تعطيلاً يحدث في الجسم ما يعرف بداء السكري.

وحينما يدور الحديث عن الأكل والإفراط فيه، وما يسببه من أمراض متنوعة، يقول أحدهم: كان الناس في الزمن السابق يأكلون بشراهة ولم يصب أي منهم بما يعرف اليوم بداء السكري.. فيجيبه أحدهم على الفور قائلاً: كان الأقدمون يأكلون ويشتغلون شغلاً يحرق ما يزيد على حاجة الجسم، ونحن نأكل ولا نتحرك حركة تجعل الجسم

يستهلك طاقة غذائية، وبهذا يكون بقاء تلك الطاقة الغذائية الزائدة داخل الجسم مضراً بالجسم.

ولهذا كثرت التوجيهات حيال التعامل مع أكل الأطعمة.. وكثرت الوصايا بعدم الإكثار وكبح جماح النهم في الأكل، فمن تلك التوجيهات والإرشادات ما قاله الشاعر محيي الدين عطية في أبيات منها قوله:

جنايتنا على النفس البطون
وما يجدي مع الجاني سجون

سوى حبس الشهية عن مداها
وتكفينا لقيماتٌ تصون

ففي الثلث الغناءُ إذا طعمنا
فبيت الداء يسكنه المنون

وإن شئنا فللثلث ارتواءٌ
بماء قد تذوب به الدهون

وللأنفاس في الباقي مسار
وتكتمل السلامة والسكون

وهل نظرية الأثلاث إلّا
خلاصة ما تقرُّ به العيون

ففيها لو تبعناها ادّخار
وأمنُ غذائنا أنّى نكون

وفي أحضانها ينمو اقتصاد
ومن موفورها تقضى الديون

○○○○○

الناقد وموقفه من الشعر المبطن!!

من الشعر ما يكون ظاهره غزل ورقة، وباطنه سياسة محضة، لكنه لا يدرك سرّ واقعه ونوع المادة التي صنعت منها عدته إلّا الناقد الذي يعرف السحاب المثقل بالمطر والسحاب الخلب الذي لا يدث مطره الأثر.. لأنه قد يكون من الشعر ما هو رثاء ظاهره فيه تفجع وتألم يبكي القارئ.. وباطنه تدغدغه الفرحة والسرور بموت ذلك المرثي. واعتباره حجر عثرة أزيح عن الطرق.

وربما يبطن المديح بهجاء هو أشد وقعاً من صريح الهجاء.. والناقد الذي يقف على مثل هذه المناهج الشعرية المغلفة بأغلفة ذات ألوان مختلفة عن لونها الأساسي يحتاج إلى مجهر يضاعف له حجم المعنى إلى أضعاف يحصل منها على حقيقة تبعده على اللجوء إلى استخدام العبارة الدارجة على ألسنة بعض دارسي الشعر وهي قولهم: المعنى في بطن الشاعر، وذلك عندما يصعب عليه فهم المعنى الذي رمى إليه الشاعر. وييأس من تحليله تحليلاً واقعياً.

والحقيقة أن الناقد البارع للشعر يستقرئ استقراءاً فيحصل على نتائج تتفق والواقع أو تقرب مما كان يقصده الشاعر.. أما ما ينطوي عليه نفسه فلا يعلمه إلّا الله.

ومثل قصيدة الشاعر زكي قنصل «أموت على ابتسامتها» فإنها في مجمل ظاهرها عزلية بحتة، لكن هناك احتمال أنه يقصد بتغزله بتلك الفتاة الغربية مقصداً سياسياً، خاصة وأنه من شعراء المهجر بأمريكا، فرأى تغليف قصيدته بغلاف الغزل ليقرأها عاشق الغزل على أنها غزل. وعاشق السياسة على أنها سياسة مبطنة بألفاظ غزلية. كيف لا. وقوله من تلك القصيدة:



تقول أميرتي إني أمير
على الشعراء من عجم وعرب
وما قرأت لشاعرها كتاباً
ولا خبراً قصيراً عنه ينبي
ولكن الهوى أعمى ولو لم
يكن أعمى لما التحقت بركبي
أبوها من جبال الألب لكن
كرامة عينها انتقلت لقلبي
تدللني على شيبي كطفل
وتعلم أن نابي ناب ذئب

وهذا فيه دلالة على أن المديح يكال لنا جزافاً.. ومنفصلاً عن الأساس التاريخي الذي يفرض مديحنا لا على أساس أن هناك مصلحة بحوزتنا الآن وعدونا في حاجة ملحة للانتفاع بها، وإنما لأننا نحمل الناس على حسن النية ونقيسهم بما نحن عليه من شرف ووفاء وكرم ممزوج بالرأفة التي تطوي الإساءة في ضمير العفو:

أجلّ أميرتي عن كل عيب
وأنزلها على قلبي وهدبي
أموت على ابتسامتها واصباً
وأطوي الأرض من شرق لغرب

ويختم زكي قنصل تلك القصيدة بقوله:

إذا رضيت فما أحلى رضاها
وإن غضبت فإن الذنب ذنبي

حقيقة أن الغفلة عن العدو والمتقمص ثوب الصديق يعد ذنباً.





فهرس الجزء الثاني عشر



